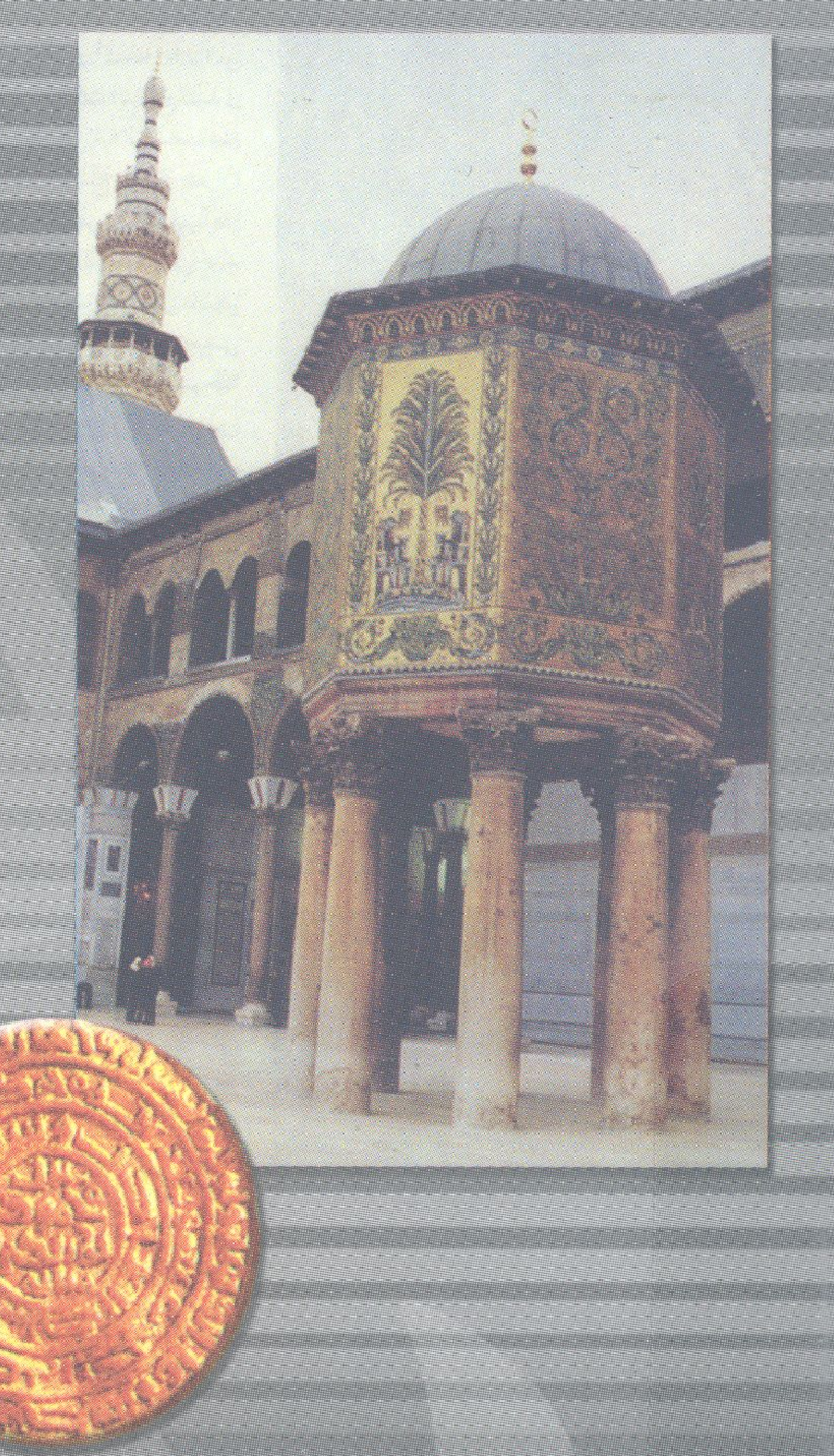
موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

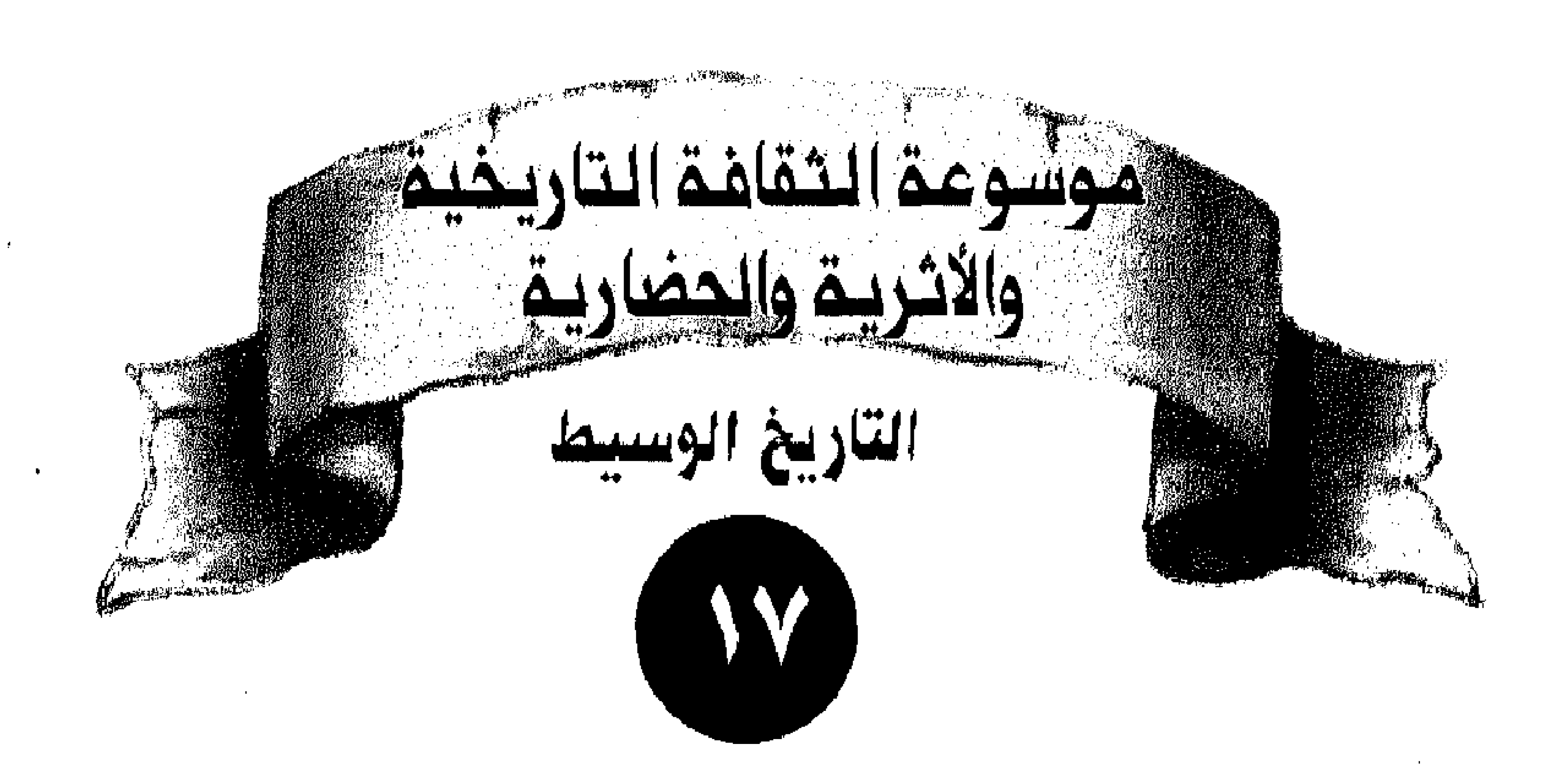


الملك العادل
نور الدين محمود





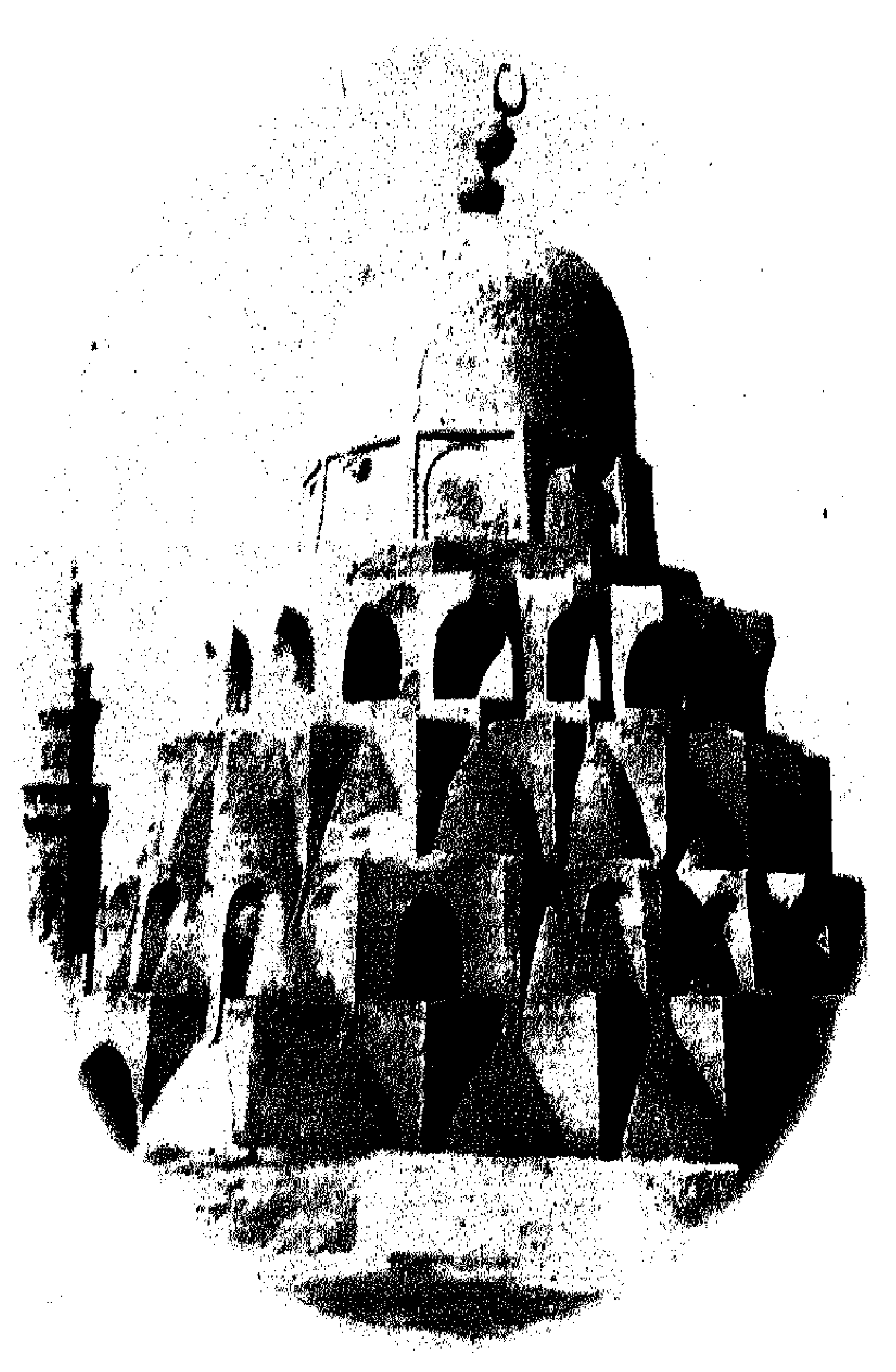
أ.د. ليلى عبد الجواد



الملك العادل نور الدين محمود

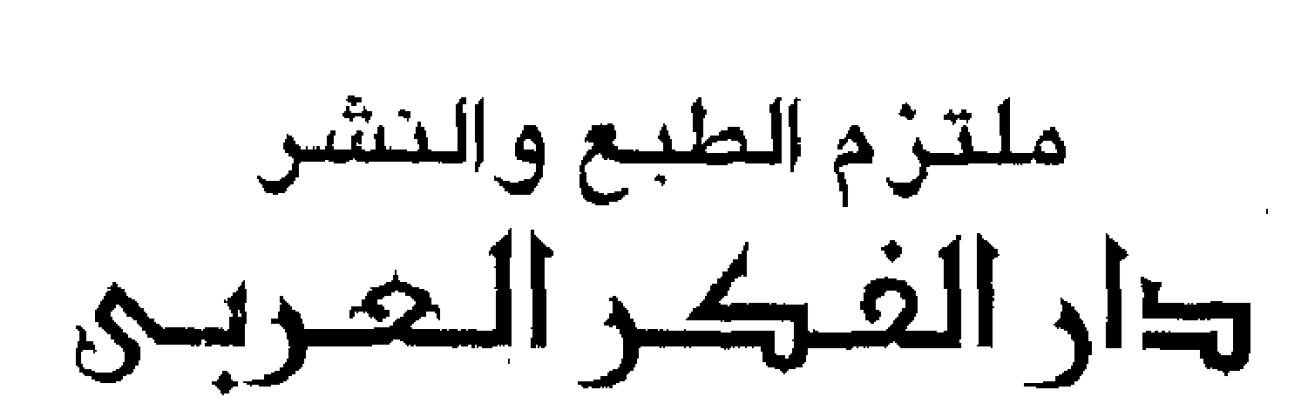
(٥٤١-٥٦٩ هـ) / (١١٤٦-١١٧٤م)

تأليف
د. ليلى عبد الجواد إسماعيل
كلية الآداب - جامعة القاهرة



قبة جامع نور الدين بدمشق

ملتزم الطبع والنشر



٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية



فازة خزفية من العصر الأيوبى

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٥٦,٠٥٥
ل ى م ل

ليلى عبد الجواد إسماعيل.
الملك العادل نور الدين محمود/ تأليف ليلى عبد الجواد إسماعيل. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨م.
أ-د ٦٨ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٧).
ببليوجرافية: ص٦٥ -٦٦.
تدمك: ٣ - ٢١٣٠ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - نور الدين محمود ونشأته. ٢- نور الدين وقيام دولته. ٣- نور الدين محمود وسياسته فى الحكم. أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٧٥ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية

لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

مديرا التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى
المهندس: عاطف محمد الخضرى

سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم

التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

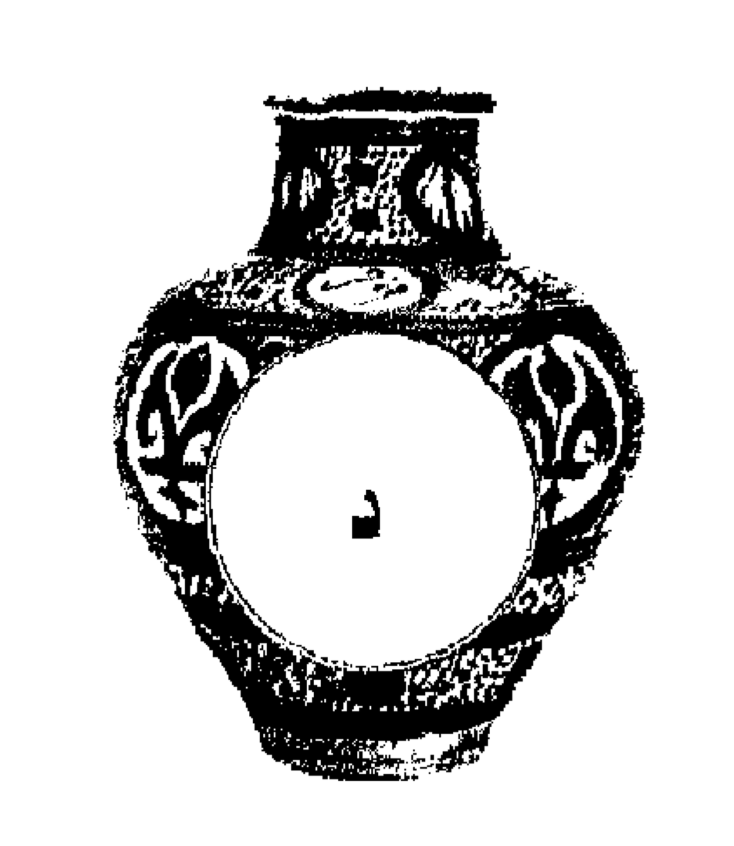
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة

التـاريخ علم من أَجَلّ العلوم الإنسـانية وأعـلاها قدرا وأكـثرها فـائدة. ويتطلب علم التاريخ فـيمن يمارسه التحلى بـأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْـد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستـعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

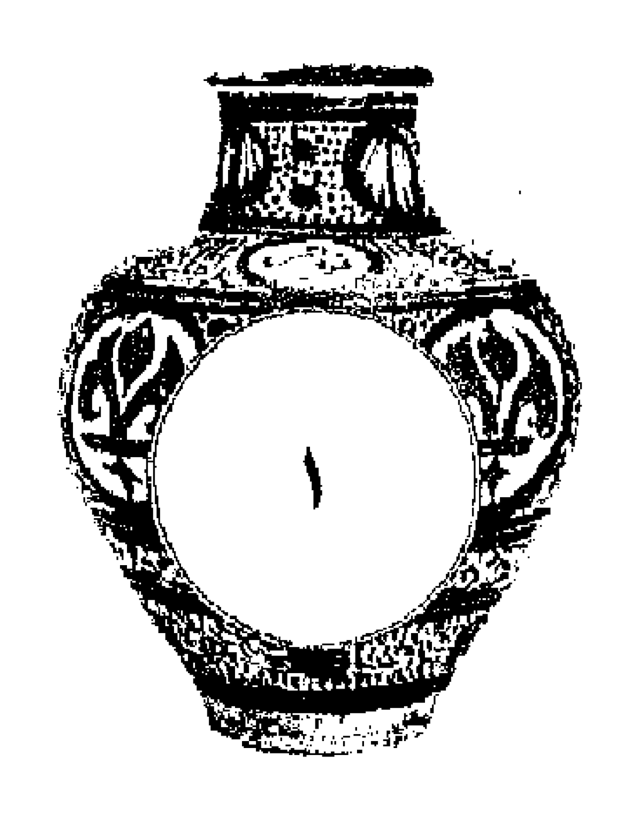
إن الروايات التاريخـية قد تـتشابه فى بعض أجـزائها على مدى الدهـور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسيـة وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحـقيقـة كثير من الـهيئات الثـقافيـة، فجعلوا للتـاريخ حقه من الاهتـمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسهـا الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجـال خدمة الثقافة العربيـة. والتى وضعت مشروعا للثقافـة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لـهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخـصصين داخل الجامعات العربية وخارجهـا. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميـمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التـاريـخية ليسعدها أن تقـدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

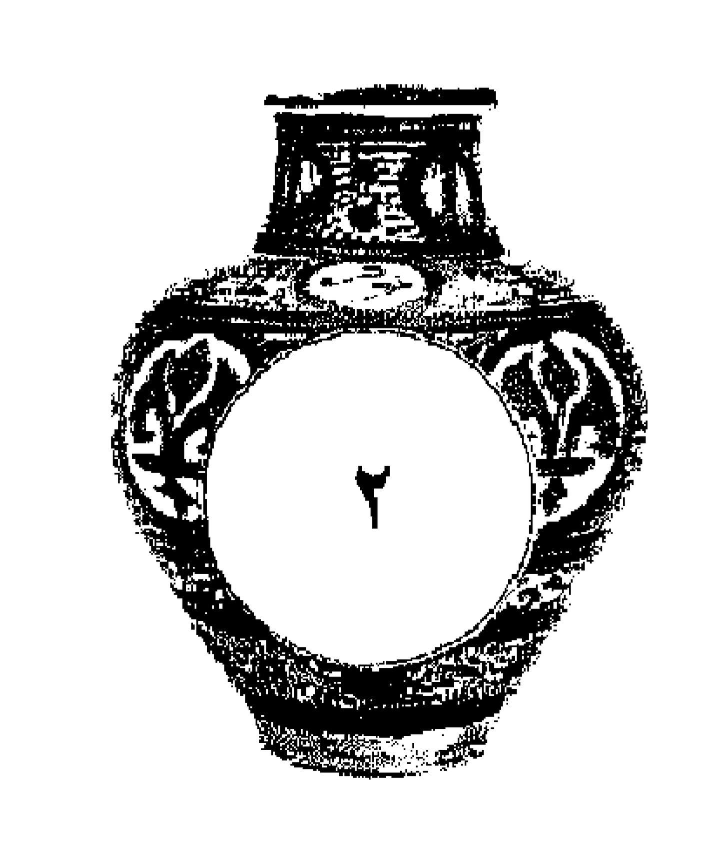
أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





لا أجدنى قـادرة على أن أقدم فى عجالة سـريعة للملك العادل نور الدين محـمود، إذ لن أستطيع فى كلمات قلائل أن أوفِّـيه حقه من التقدير، وأن أبرز دوره الفعـال على مسرح التاريخ؛ لذلك سوف أترك صفحات هذا الكتاب تتحدث عنه، وتنطق بأفعاله ومآثره.. تنطق بعدله وورعه وتقواه وزهده، وبعلمه وفكره وثاقب بصره.. بحنكته السياسيـة وخبرته الحربية.. بجهاده وصبره فى الميادين.. بجـلائل أعماله وعظيم صـفاته، التى أشاد بـها العدو قبل الـصديق، ولعلى بذلك أكون قد وفيته بعض حقه.

ليلى عبد الجواد إسماعيل



الفصل الأول
نشأة نور الدين محمود وحياته الخاصة

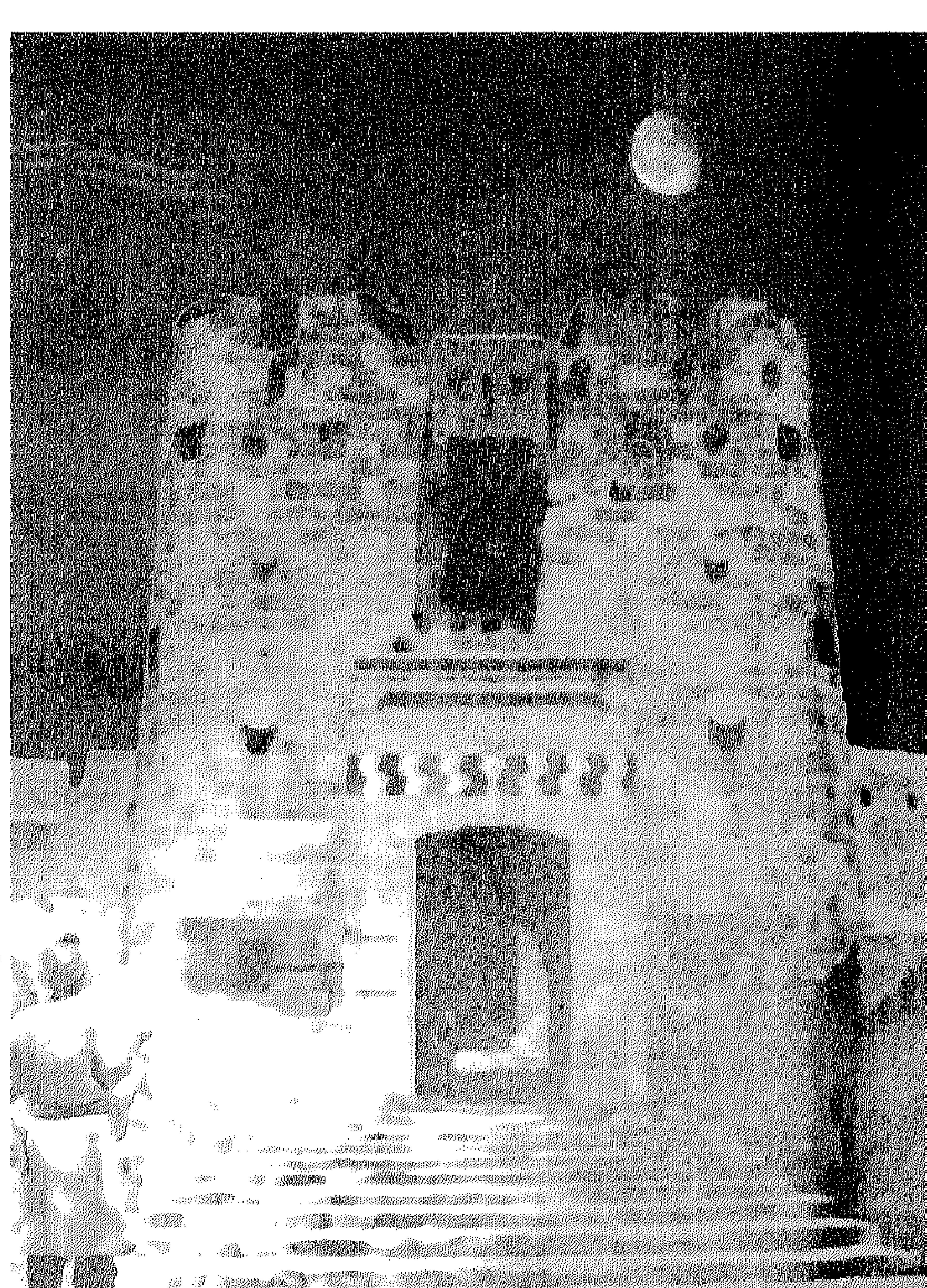
مولده وصفاته:

هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر، ويلقب بالملك العادل نور الدين محمود. وولد نور الدين محمود وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة (٥١١هـ/ ١١١٧م)، ونشأ فى كفالة والده عماد الدين زنكى، صاحب الموصل وحلب وغيرهما من البلدان. وكان أبوه يقدمه على سائر أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة كما يذكر ابن تغرى بردى.

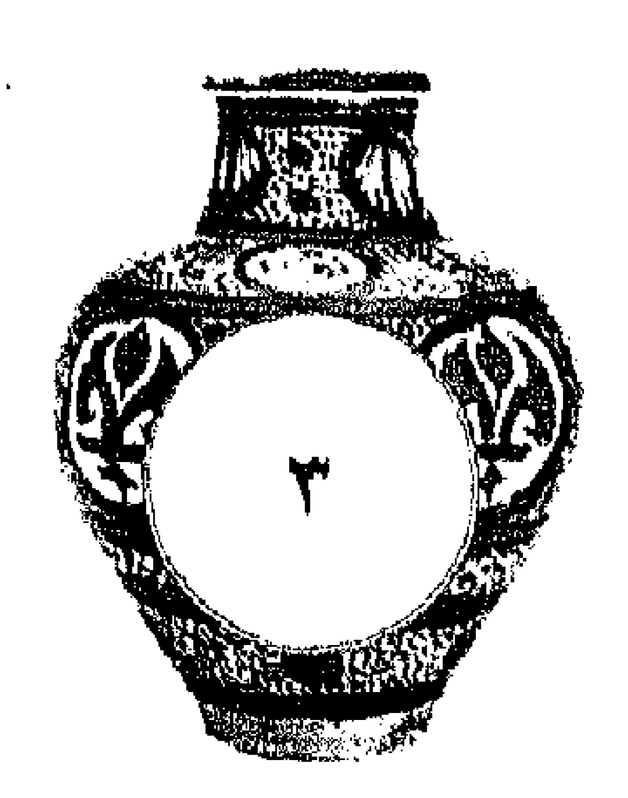
كان نور الدين كما تصفه المصادر طويل القامة، أسمر اللون، حسن الصورة، واسع الجبهة، حلو العينين، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه.

ومن أهم خصال نور الدين وخلاله إيمانه العميق بالإسلام حتى أن البعض يذكر أنه إذا كان لعظمة كل عظيم سر، فإن سر نور الدين كله فى إيمانه، فقد امتلأت نفسه بالإسلام، وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيها إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام.

لقد كان نور الدين، كما يروى المؤرخون، محافظا على الصلوات فى أوقاتها فى جماعة، بتمام شروطها، والقيام



بوابة قلعة حلب



بها بأركانها، والطمأنينة فى ركوعها وسجودها، وله أوراد فى النهار. كما كان كثير الصلاة بالليل، حريصا على أن يوقظ أهل بيته وسائر المسلمين لصلاة الليل، ومن أجل ذلك أمر بضرب طبلخانة من القلعة وقت السحر، لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب عليها أجرا جزيلا، وجراية كثيرة.

كان نور الدين، إلى جانب مواظبته على الصلوات، عاكفا على تلاوة القرآن الكريم، كثير الاستغفار، كثير الدعاء والتضرع إلى الله تعالى فى أموره كلها، وقد خصص لنفسه بيتا صغيرا من الخشب يخلو فيه للتعبد معظم أوقاته وأكثرها حتى قال فيه الشاعر :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان نور الدين فقيها، عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة، كما كان شغوفا بالحديث النبوى، سمعه من نفر من جلة المحدثين، وأجازوا له التحديث، وأسمعه طلبا للأجر والثواب، فقد روى حديث الرسول ﷺ وأسمعه، حرصا منه على الخير فى نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا كما جاء فى الحديث ؛ ولذلك كان كثير المطالعة لكتب الحديث والفقه، متبعا للآثار النبوية. وكان يقلد الرسول ﷺ فى كافة أموره، فعندما سمع أن النبى ﷺ خرج متقلدا سيفا، وكان الجنود يربطونه بأوساطهم، اقتدى برسول الله ﷺ وخرج من القلعة، وهو متقلد للسيف، وجميع عسكره كذلك.

لقد أكسب هذا الإيمان نور الدين احترام خصومه من الصليبيين، فكانوا على عداوتهم له يوقرونه، ويعترفون بفضله وصدق إيمانه، وورعه وتقواه، فقد جاء على لسان المؤرخ الصليبى وليم الصورى: « أن نور الدين كان رجلا.. يخشى ربه فى نظر قومه ». وذكر فى موضع آخر « وهو من الأتقياء الورعين ». كما كان الصليبيون يقولون: « ابن القسيم (أى نور الدين) له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظهر علينا بالدعاء فى صلاة الليل، فإنه يصلى بالليل، ويرفع يديه إلى الله ويدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله، وما يرد يده خائبة، فيظهر علينا ».

كان نور الدين عفيف اللسان، لم تسمع منه - كما تروى المصادر- كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره، وأشهى ما يحب كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها، فما حفظ له التاريخ كلمة نابية لإنسان أو فى حق رجل، وهذه مرتبة فى كمال خلق، لا يصل إليها إلا أفذاذ نوادر على طول التاريخ.



كان نور الدين يدعو أيضا إلى التسامح والعفو عند المقدرة، فيذكر المؤرخ ابن كثير، أنه جاء إليه أخو الشيخ أبى البيان يستعديه على رجل أنه سبه ورماه بأنه يرائى وأنه. . . وأنه. . . ، وجعل يبالغ فى الشكاية عليه، فكان رد نور الدين عليه : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا(٦٣) ﴾ [الفرقان] وقال أيضا : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]. وتوضح هذه الرواية مدى دعوة نور الدين إلى التسامح والعفو عن الناس، وصدق العماد الأصفهانى إذ يقول فيه :

فقت الملوك سماحة وحماسة حتى عدمنا فيهم لك مشبها

وكان نور الدين متسامحا مع أعدائه يقدر ظروفهم فيروى المؤرخ وليم الصورى : اقترح البعض على نور الدين أن يغتنم فرصة موت الملك الصليبى بلدوين الثالث (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) وانشغال الصليبيين بتشييع جنازته، ويغير على بلادهم، فأجابهم : « بل يجب علينا أن نشاطرهم حزنهم، وأن ندعهم وما هم فيه، فلا نزيدهم بلوى على بلواهم، لأنهم فقدوا أميرا ليس له فى الدنيا شبيه». فما أعظم هذا الخلق، وقد قل من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة، وفى ذلك يقول العماد الأصفهانى :

ولك الفخار على الجميع فدونهم أصبحت من كل العيوب منزها

كان نور الدين عفيف البطن والفرج، متحريا فى المطاعم والملابس، فقد ترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، مقتصدا فى الإنفاق، فكان يأكل من عمل يده، فينسج ويخيط الكوافى تارة، ويعمل السكاكر (الأقفال)، ويبيعها له العجائز سرا، تارة أخرى. وحكى شرف الدين يعقوب بن المعتمد أن فى دارهم سكرة (قفل من خشب) على خرستان من عمل نور الدين محمود ويتبركون بها. ومنع نور الدين شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده، كما منع إدخالها إلى أى بلد ما، وكان يحد شاربها الحد الشرعى، وكل الناس عنده فيه سواء. كذلك لم يلبس نور الدين قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة.

أما عن اقتصاده فى الإنفاق فقد قيل : « أن أدنى الفقراء فى زمانه كان أعلى منه نفقة من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، إذ كان شعاره فى الحياة : « أن الدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها ». وقد خصص له فى كل شهر مبلغ ألفى قرطيس - الجمع قراطيس وهى عملة فضية عبارة عن كسور الدينار- يصرفها فى كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة حتى أجرة خياطه وخيطه وإبرته، وجامكية (أى راتب) طباخه وقدره ومغرفته، ورغم قلة المقرر له إلا أنه كان يتبقى منه ما يتصدق به فى آخر الشهر على الفقراء والمساكين. لقد كان زاهدا فى الدنيا، بل ووصف بسيد الزاهدين فى زمانه.

٥

كان نور الديـن محمـود مع إيمانه وتدينه، وورعه وتقـواه وزهده جنديا حسن التكوين والتـدريب، ماهرا فى الرمى بالقوس، بارعا فـى ركوب الخيل، والحرب على صهواتها حتى قيل: « أن الناس لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، وكأنما خلق عليه لا يـتحرك ولا يتزلزل ». وكان إذا حضـر الحرب يأخذ معـه قوسين وتركشين (أى جـعبتين للـسهام)، ويخـوض المعركة بنفـسه مع جنوده، ويتعرض لـلخطر طلبا للشهادة إذ كـان يقول : « طالما تعرضت للشهـادة فلم أدركها ولم أرزقها » ومن أجل ذلك لقب نور الدين محمود « بالشهيد » لطلبه الشهادة فى قتال أعدائه.

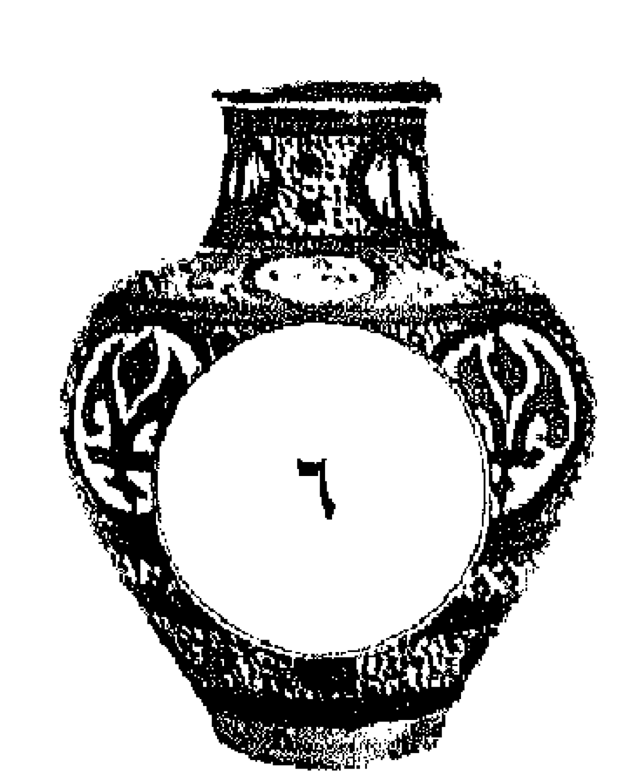
كان نور الدين فى الحرب ثابت القدم، حسن الرمى، صليب الضـرب، أصبر الناس فيها، وأحـسنهم مكيدة ورأيا، فـقد أوتى فى الـقيـادة ورسم الخطط ونظام المعارك، وأسـاليب الحصـار مواهب جـعلته أعظم قواد زمـانه، ومضرب المثل، وكان يكثـر أعمال الحـيلة، والمكر والخداع مع الفرنج، وأكثر ما ملكه من بلادهم به على نحو ما سنرى.

هوايات نور الدين محمود :

لم تكن حياة نور الدين كما يخالها الإنسان حـياة زهد وصلاة وتعبد، أو حياة حرب ونزال وقتال، بل كـان كأى إنسان له هواياته ورغبـاته. فقد كان شـديد الولع بلعب الكرة - التى تعرف اليوم باسم (البولو) وكـان يلعبها مع أصحابه ومن بينهم صـلاح الدين - الذى كان يحسن اللعب بها، فيذكـر أبو شامة نقلا عن العماد الأصفهـانى. « ويركب صلاح الدين مبكرا كل بكرة، وهو عارف بآدابها فى الخدمة وشروطهـا المعتبرة ». وبلغ من شدة ولع نور الدين بلعب الكرة، أنه ربما دخل الظلام، فيلعب بها بالشموع فى الليلة المسفرة.

كان لنور الدين فيها، مهارة، وبراعة فى اللعب فيذكر ابن الأثير أنه « كان من أحسن الناس لعبا بالكـرة، وأقدرهم عليها، لم ير جوكـانه (مضرب الكرة) يعلو على رأسـه، وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجرى الفرس ويتناولها بيده فى الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى الجوكان فيها، بل تكون فى كم قبائه (ثوبه) استهانة باللعب».

ولما كان نور الدين يدمن لعب الكرة، فقد لامـه رجل من الصالحين، كان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، ويعتـقد فيه اعتقـادا حسنا، وقد كتب هذا الشيخ لنور الدين محمود يقول : «مـا كنت أظنك تلهو، وتلعب، وتعـذب الخيل لغيـر فائدة دينية » فكـتب إليه نور الدين يقول: «والله ما يحملنى على اللعب بالكرة، واللهو البطر، إنما نحن فى ثغر، والعدو قريب منا، وبينمـا نحن جلوس إذ يقع الصوت، فنركب فى الطلـب (الكتيبـة من الجيش)، ولا يمكننـا أيضا ملازمـة الجهاد ليـلا ونهارا، وشتـاء وصيفـا، إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تـركنا الخيل على



مرابطها، صارت جماما (مرتاحة) لا قدرة لها على إدمان السير فى الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة، والطاعة لراكبها فى الحرب، فنحن نركبها، ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جماحها، فهذا والله الذى بعثنى على اللعب بالكرة ».

يتضح من العبارات السابقة أن نور الدين حقيقة كان شغوفا بهذه الرياضة لذاتها من ناحية، ولأنها تبعث فيه وفى جنوده القوة والنشاط والحركة، كما أنها تعلم خيله الكر والفر فى الميدان حتى يصبح على أهبة الاستعداد دائما لخوض المعارك والقتال بدلا من أن تركن إلى الراحة فيصيبها الكسل والإعياء.

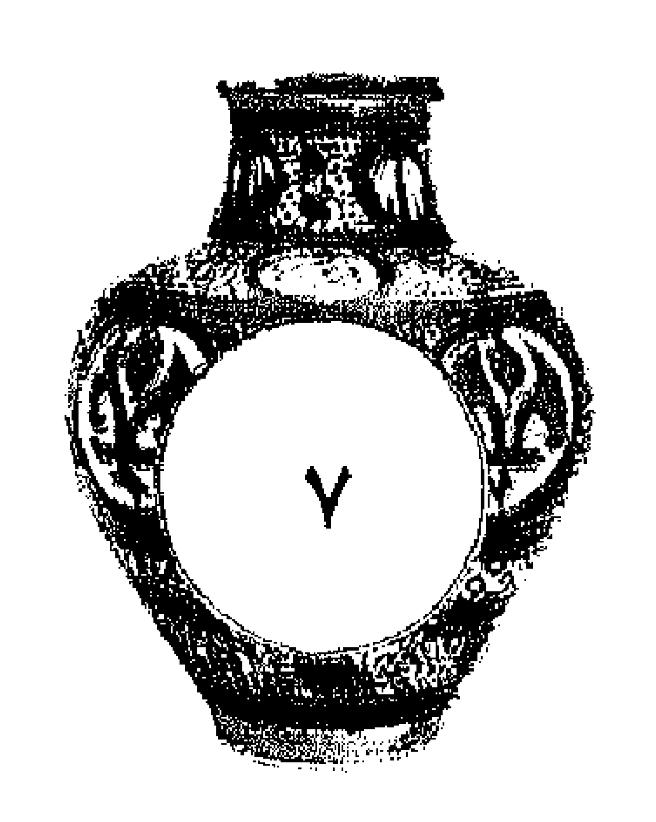
كان نور الدين يهوى الصيد كذلك، وكان بارعا فيه، فيذكر أسامة بن منقذ - صاحب كتاب الاعتبار والذى عمل فى خدمة نور الدين محمود - العديد من الروايات التى يظهر من خلالها مهارته وبراعته فى الصيد ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يرويه أسامة بقوله: « شهدت الصيد مع الملك (أى نور الدين) وحضرته ونحن بأرض حماه، وقد جلوا له أرنبا، فضربها بنشابة كشماء. . . فقطعت النشابة رجلها من فوق العرقوب، وشقت جوفها. . . فوقع منها بيت الولد». ويظهر أسامة بذلك مهارة نور الدين فى الصيد.

وظل نور الدين حتى الرمق الأخير فى حياته يمارس لعبة الكرة ورياضة الصيد مما يظهر مدى تعلقه بهما.

حياته الخاصة:

تزوج نور الدين محمود من عصمت الدين خاتون ابنة معين الدين أنر - متولى أمور دمشق - فيذكر ابن القلانسى « أنه فى شوال من عام ٥٤١هـ / مارس ١١٤٧م ترددت الرسل والمراسلات بين الأميرين نور الدين محمود ومعين الدين أنر، إلى أن استقرت الحال بينهما. . . وانعقدت الوصلة بين نور الدين وابنه معين الدين، وكتب كتاب العقد فى دمشق، بمحضر من رسل نور الدين فى يوم الخميس ٢٣ شوال / ٢٨ مارس من سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧ م، وشرع فى تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب، وفى صحبتهم العروس ومن فى جملتها من خواص الأصحاب، وذلك فى ١٥ ذو القعدة / ١٨ أبريل من نفس العام.

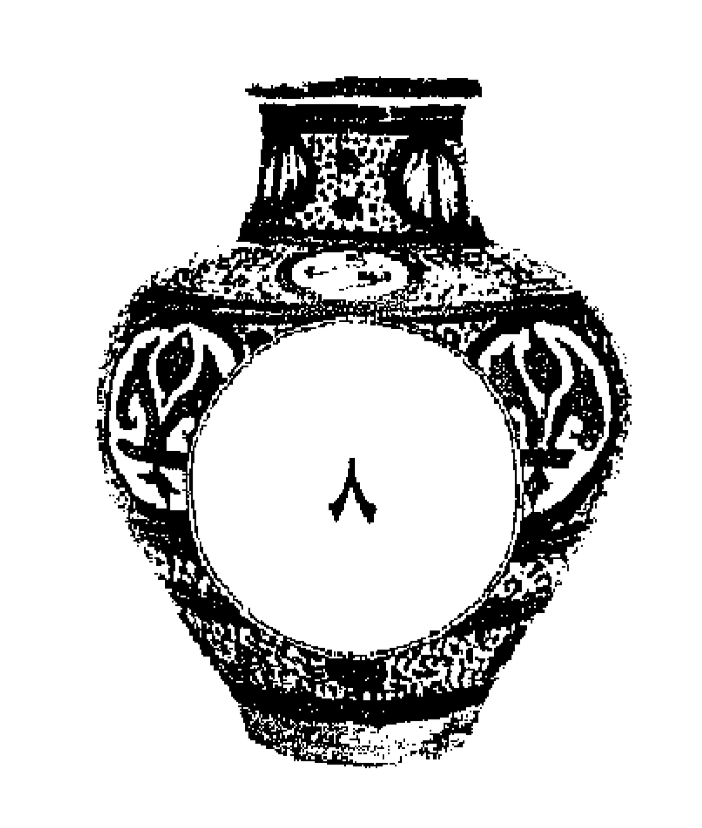
وقد وصف البندارى العروس: «بأنها من أعف النساء، ولها أمر نافذ ومعروف، وهى فى الدولة حاكمة، ولها صدق وصدقات، ورواتب للفقراء، وقد بنت للفقهاء والصوفية بدمشق مدرسة ورباطا، وهذا سوى أوقافها على معتقيها وعوارفها وأقاربها.



أما عن علاقة نور الدين بزوجته عصمت الدين، فيحدثنا عنها أبو شامة فيذكــر على لسان رضيع الخاتون ووزيرها : « أن نور الدين كان إذا جــاء إليها يجلس فى المكان المختص به، وتقوم فى خدمته، ولا تتقدم إليه إلا أن يأذن فى أخذ ثيــابه عنه، ثم تعــتزل عنه إلى المكان الذى يخــتص بها، وينفــرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال أو فى مطالعة كتاب أتاه».

ويبدو أن نور الدين تزوج ثانية من ابنة السلطان السلچوقــى مسعود بن قلج أرسلان سلطان قونيه، إذ تذكر المصــادر أن جوسلين أمير الرها، حينما نجح فى أسر سلاحــدار نور الدين محمود أرسل إلى السلطان مسعــود يقول له : « هذا سلاحدار زوج ابنتك » وفى رواية أخــرى قد أنفذت لك سلاحدار صهرك ».

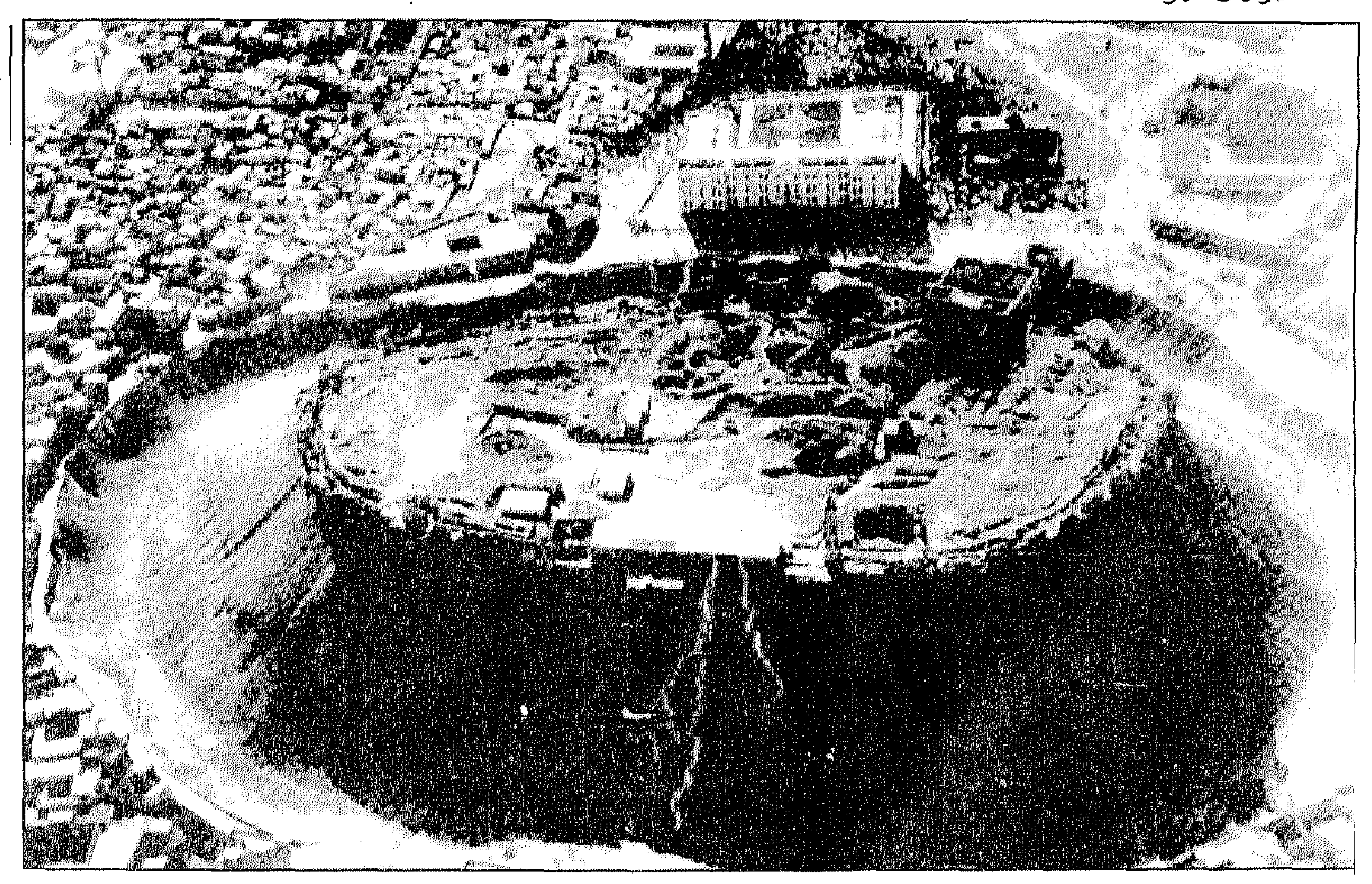
أمــا عن أبناء نور الدين فــيذكــر المؤرخــون أنه كانت لــه بنت وولدان، ولد الأول فى سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م بحمص، وســماه أحمــد ثم توفى فى دمشق طفــلا فى حياة أبيــه، والثانى هو الصالح إســماعيل الذى أنجبــه نور الدين فى السابعة والأربعين من عمــره وتركه صبيــا فى الحادية عشرة من عمره.



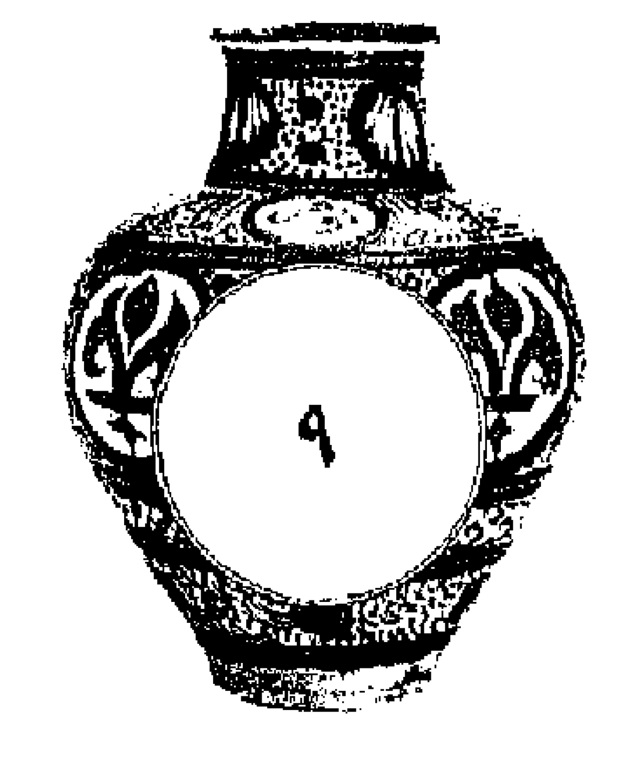
الفصل الثانى
قيام الدولة النورية فى حلب ودمشق

أولا : قيام الدولة النورية في حلب

ظل نور الدين محـمود إلى جوار والده عمـاد الدين زنكى حتى قتل الأخـير فى ٥٤١هـ/ ١١٤٦ م، ويذكر ابن واصل : « أن نور الدين لما قتل أبوه أخذ خـاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها » وقد سـاعده على ذلك رجالات أبيه، الذين حرصوا على حفظ مملكته بـعد وفاته، فقد سار نور الدين إلى حلب وفى خدمتـه صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيسـانى - صاحب حماه وأحد كبار مـستشارى والده - وعساكـر الشام، ودخل نور الدين حلب فى ٧ربيع الأول ٥٤١هـ/ ١١٤٦م بمساعدة أسد الدين شـيركوه، الذى أصعد نور الدين إليها، وقـرر أمره، ومشى أحواله، كما يروى أبو شامة.



منظر من الجو لقلعة حلب



ثانيا : قيام الدولة النورية فى دمشق

استقــام الأمر لنور الدين محمود فى حــلب، بينما استقام الأمــر لأخيه سيف الدين غازى فى إمارة الموصل، التى حصل عليها بعد وفاة أبيه كذلك.

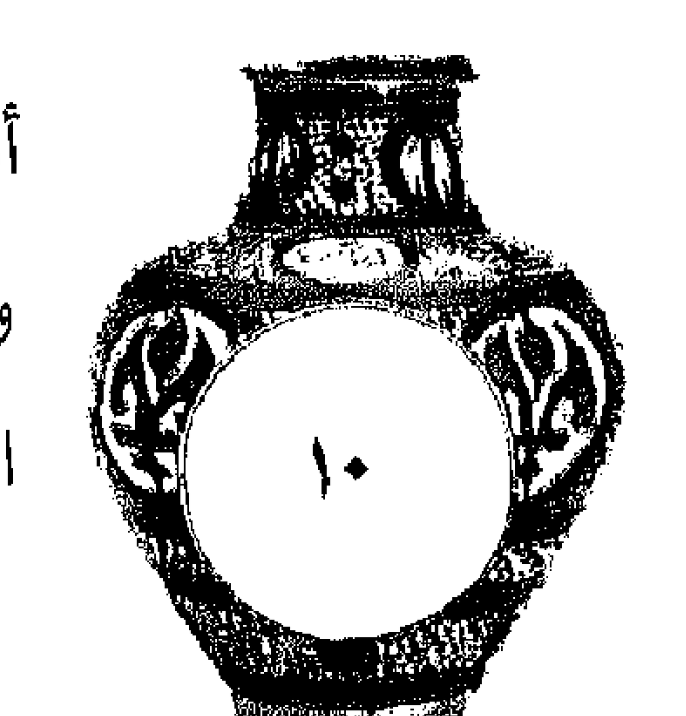
وإذا كانت الدولة النورية قد قامت فى حــلب، فما لبث نفوذ نور الدين أن اتسع وضم إلى حلب حمص وحماه، ثم تطلع للسيطرة على دمشق.

وكان يحكم دمشق فى ذلك الحين مــجير الدين بن محمد بن بورى بن طغــتكين، أما مدير أمورها فهــو معين الدين أنر، وكانت دمشق حليفــا وصديقا للصليبــيين فى الشام، وكان ذلك من أهم الأسباب التى دعت نور الدين لأخذهــا والسيطرة عليها حتى يحكم قبضــته على الشام، وقد واتت نور الدين الفرصة للتــدخل فى شئون دمشق والسيطرة عليهــا، عندما أرسل الغرب الأوربى حملته الصليبية الثانية إلى الشرق بقــيادة اثنين من كبار ملوك أوربا وهما : كونراد الثالث أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فــرنسا، وجاءت هذه الحملة إلى الشرق بهــدف تأمين الوجود الصليبى فى شمال الشام، وذلك لا يتم إلا بالقضاء على القوة الإسلامية النامية متمثلة فى حلب تحت قيادة نور الدين محمود.

ولكن فــقدت الحــملة هدفهــا الرئيس، واتجــهت نحو مــدينة دمشــق حليف الصليبــيين - وهاجمت المدينة فى صفر ٥٤٣هـ / يوليو ١١٤٨م، واستغاث صــاحبها مجير الدين بالملك العادل نور الدين صاحب حلب، وبأخيــه سيف الدين غازى صاحب الموصل، فهبــا سويا لنجده دمشق، وقد هيأ ذلك الفــرصة الملائمة لنور الدين للتفكير الجــدى فى ضم دمشق إليه فيمــا بعد، والاتحاد معها الآن، إيمانا منه بالمصير المشترك للقوى الإسلامية فى بلاد الشام.

نجحت دمشق بفضل مساعدة نور الدين محمــود وأخيه سيف الدين فى مواجهة الصليبيين، الذين اضطروا لرفع الحــصــار عنها، والعــودة إلى بلادهم، ولكن بمجــرد أن تلاشى خطر الحــملة الصليبية، عــاد صاحبها مجــير الدين، يجدد التحالف القديم بينه وبين الصليــبيين فى بلاد الشام، وذلك نظرا لخــوفه من خطر نور الــدين، ووافق على عقــد هدنة لمدة سنة مع مملكة بيت المقــدس الصليبيــة فى المحرم من عام ٥٤٤هـ/ مايو ١١٤٩م. وقــد أدى ذلك إلى تدخل نور الدين الفعلى فى دمشق، خــاصة وقد توفى معين الدين أنر فى ٢٣ ربيع الآخــر ٥٤١هـ/ ٣ أغسطس ١١٤٩م، وبوفاته انفرد مجير الدين بحكم دمشق، ونظرا لعدم خبرته بشئون الحكم فقد بقيت السلطة الفعلية فى يد رئيس دمشق على بن الصوفى وأخيه زين الدين، مما أدى إلى تدهور أحوال دمشق.

استغل نور الدين هذه الــفرصة، وقام فى المحرم من عــام ٥٤٥هـ/ أبريل ١١٥٠م بمحاولته الأولى لدخول دمشق ومنازلتــها، وحاصرها، ولكنه عاد وأشفق من سفــك دماء المسلمين، خاصة



أن أهلها قد راسلوه، وخرج إليه صاحبها مجير الدين والرئيس ابن الصوفى وبذلا له الطاعة، أن يخطب له على منبر دمشق بعد الخليفة العباسى، وينقش اسمه على الدينار والدرهم، فرضى نور الدين بذلك وعاد إلى حلب.

ثم ما لبث أن عاود نور الدين حصار دمشق مرة ثانية فى العام التالى فى المحرم ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، وذلك بسبب محالفة صاحبها مجير الدين للصليبيين، على أنه اضطر لرفع الحصار عنها أيضا هذه المرة لخروج بلدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٢م) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بقواته لنجدتها بعد أن استنجد به مجير الدين وابن الصوفى، وتم عقد الصلح من جديد بين نور الدين ومجير الدين، وتجديد الأيمان والعهود، ورحل عنها نور الدين ثانية.

أسوار قلعة دمشق

١١

على أية حال نجح نور الدين فى المحاولة الثالثة التى قام بها فى سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م فى دخول دمشق، وذلك بسبب ما أظهره مجير الدين من الظلم ومصادرة أهلها وسفك دمائهم، وأخذ أموالهم، وقبضه على جماعة من الأعيان، هذا فضلا عن مكاتبته الفرنج واستنجاده بهم، وأطمعهم فى بلاده. ولما ساءت سيرته وكثر فساده، كاتب أمراء دمشق وأعيانها نور الدين، الذى لجأ إلى الحيلة لدخول المدينة بدلا من استخدام القوة، خشية أن يستغيث مجير الدين بالصليبيين ويعطيهم دمشق، «فيكون وهنا عظيما على الإسلام» كما يذكر سبط بن الجوزى.

وبدأ نور الدين محمود بمراسلة أهل دمشق، وحاول أن يستميلهم إليه، ويزكى فيهم الثورة ضد مجير الدين، ويعرض عليهم استعداده لمساعدتهم، وفى نفس الوقت أرسل نور الدين إلى مجير الدين الهدايا النفيسة، مظهرا له المحبة والمودة حتى يطمئن إليه، كما حاول نور الدين أن يوقع بين مجير الدين وبين رجاله وخاصته، فكان نور الدين يكتب إليه ويقول: « إن فلانا يكاتبنى، وفلانا يكاتبنى، فتارة يقبض عليهم، وتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة ينفيهم، فخلت دمشق من الأمراء، ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ» الذى قبض عليه مجير الدين هو الآخر وقتله. واستطاع نور الدين بذلك أن يضعف من مركز مجير الدين، وأن يوقع بينه وبين رجاله وفرقهم من حوله.

دخل نور الدين دمشق بمساعدة أهلها وأعيانها وأحداثها (الفتية الشبان) الذين فتحوا له الباب الشرقى للمدينة، فدخلها وحاصر مجير الدين فى القلعة، واضطر مجير الدين للاستسلام بعد أن أمنه نور الدين على نفسه، وماله وأقطعه عدة إقطاعات فى مدينة حمص.

واستقبل أهل دمشق نور الدين محمود بكل مظاهر الفرح والسرور، وقد أمر نور الدين جنده بمنع عمليات السلب والنهب، وأصدر أوامره بإغراق أسواق المدينة بالمواد الغذائية، كما ألغى الضرائب المقررة على الفاكهة والخضروات، وهكذا آلت دمشق بجندها وإدارتها وحكومتها وإقطاعاتها إلى نور الدين محمود، فكان ذلك « فتح الفتوح »، إذ صارت الدولة النورية بعده قطعة متصلة من الشمال والجنوب.





أولا : الإدارة والقضاء :

اهتم نور الدين اهتماما بالغا بشئون الإدارة والقضاء فى الدولة النورية، وأظهر مهارة وبراعة فائقة فى هذا الشأن، فقد كان وقته كما يذكر أبو شامة «مصروفا إلى مصالح الناس والنظر فى أمور الرعية، والشفقة عليهم».

ويبدو أن نور الدين اتبع نفس النظم الإدارية المعمول بها فى عصره، والتى كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وقد اعتمد فى تطبيق هذه النظم على صفوة رجال الإدارة ممن اشتهروا بالكفاية والإخلاص ومن هؤلاء : صلاح الدين الياغيسيانى، وكان أحد كبار مستشارى والده زنكى، وسبق أن رأينا كيف ساعد نور الدين على دخول حلب، وما لبث أن أصبح صلاح الدين « مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها».

خلف صلاح الدين مجد الدين محمد بن الداية - أخو نور الدين فى الرضاعة - الذى استنابه نور الدين فى حلب وولاه جميع أموره وجميع مملكته، وكان لا يحل ولا يعقد إلا برأيه، وأجاد مجد الدين دوره وأحسن الولاية والتدبير فى حلب، وكان عند حسن الظن دائما ؛ لذلك تمتع مجد الدين بثقة نور الدين ومحبته، وظل يدبر الأمور فى حلب حتى وفاته فى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م.

عهد نور الدين - بعد وفاة مجد الدين - إلى أخيه شمس الدين على بصلاحيات منصب أخيه مجد الدين، وبرز أبناء الداية فى هذا المجال، وأظهروا براعة فى إدارة أمور الدولة النورية فى حلب وشاركهم بنو أيوب وعلى رأسهم أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب وابن أخيه صلاح الدين ؛ ولكن إذا كان دور أبناء الداية قد انحصر فى حلب، فإن دور بنى أيوب قد برز فى دمشق، الشطر الثانى لدولة نور الدين محمود، فقد دخل نور الدين دمشق بمساعدة أسد الدين شيركوه وأخيه نجم الدين فى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م فيذكر أبو شامة أنه كان لأسد الدين شيركوه اليد الطولى فى فتح دمشق فولاه نور الدين أمرها، ورد إليه جميع أحوالها ». ويتابع أبو شامة فيذكر « توسط أسد الدين فى أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا، وسيره إلى

دمشق، فأقام فيها، ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تورانشاه شحنكية (شرطة) دمشق فساسها أحسن سياسة، ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح الدين.

ويعد العماد الأصفهانى من أبرز رجالات نور الدين فى مجال الإدارة، وقد قدم العماد إلى دمشق فى عام ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م، فاستقبله القاضى كمال الدين الشهرزورى بالمدرسة النورية الشافعية، وعرفه بنور الدين، فرتبه الأخير فى ديوانه منشئا فى عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة فى كتابة الإنشاء ثم اتسعت اختصاصات العماد، فقد رتبه نور الدين فى سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣ م مشرفا بديوانه (أى مراقبا لأمور الديوان) مضافا إلى كتابة الإنشاء، وفى ذلك يقول العماد : « فجمعت بين المنصبين، وقسمت زمانى على النصيبين، فمرة للكتب والمناشير، وتارة للإثبات فى الدساتير، ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسى ».

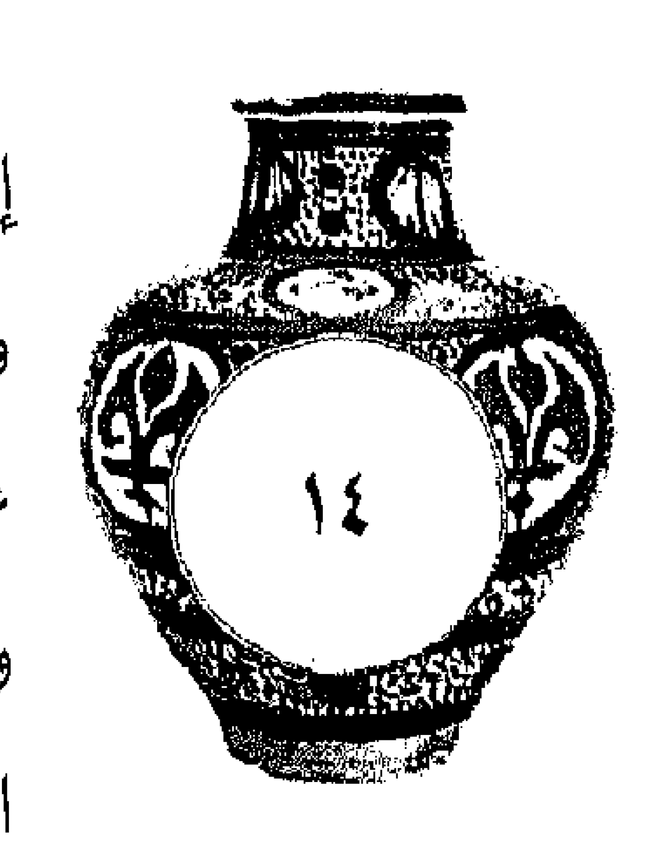
ولمع فى مجال الإدارة والمال من رجالات نور الدين محمود « خالد بن القيسرانى » فيذكر ابن واصل « قال معين الدين : وكان جدى خالد بن محمد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها، وكتابة الإنشاء، وإمرة مجلسه، وهو المشير والوزير، والأمور كلها عائدة إليه».

أما عن تولية القيسرانى الإنشاء، فيبدو أن ذلك كان قبل تولى العماد هذا المنصب أما عن توليه الاستيفاء فسوف نفصل له عند الحديث عن الأوضاع المالية فى دولة نور الدين.

وفيما يتعلق بإدارة الأقاليم، فقد قسمت دولة نور الدين إداريا إلى عدة أقاليم شهد كل منها عدد من الولاة والمقطعين وهى: القسم الشمالي من بلاد الشام وقاعدته حلب، والقسم الأوسط وقاعدته دمشق، إلى جانب مقاطعة حمص، وإقليم الجزيرة الفراتية، هذا فضلا عن الإقاليم التى فتحت فيما بعد كمصر واليمن، وقد ربط نور الدين هذه الأقاليم الإدارية جميعا بسياسة مركزية موحدة لمجابهة تحدى الصليبيين من جهة، ومحو آثار التمزق الذى عانته المنطقة من جهة أخرى.

كذلك حرص نور الدين طيلة حياته على الاتصال الدائم والمباشر ببلاده وبموظيفها وأهلها وجندها ؛ لذلك استقرت أحوال البلاد، وضبطت أمورها الإدارية، فلم يحدث أن خرج عليه عامل أو وال، لأنه لم يكن يترك الفرصة لهم لمجرد التفكير فى ذلك، وكان رجالاته يخشون الخطأ أو التراخى، ويحرصون على أن يكونوا عند حسن ظنه دائما.

أدخل نور الدين بعض التغييرات على النظام الإدارى فى الدولة النورية من ذلك أنه قام بإلغاء وظيفة الشحنكية أو الشحنة، لأن الشحنة كان يستحل كل شىء، فيقتل أو يحبس أو يصادر الأموال ولم يستسغ ذلك نور الدين، لذلك أصدر أمرا بإلغاء وظيفة الشحنة ونقل اختصاصاتهم

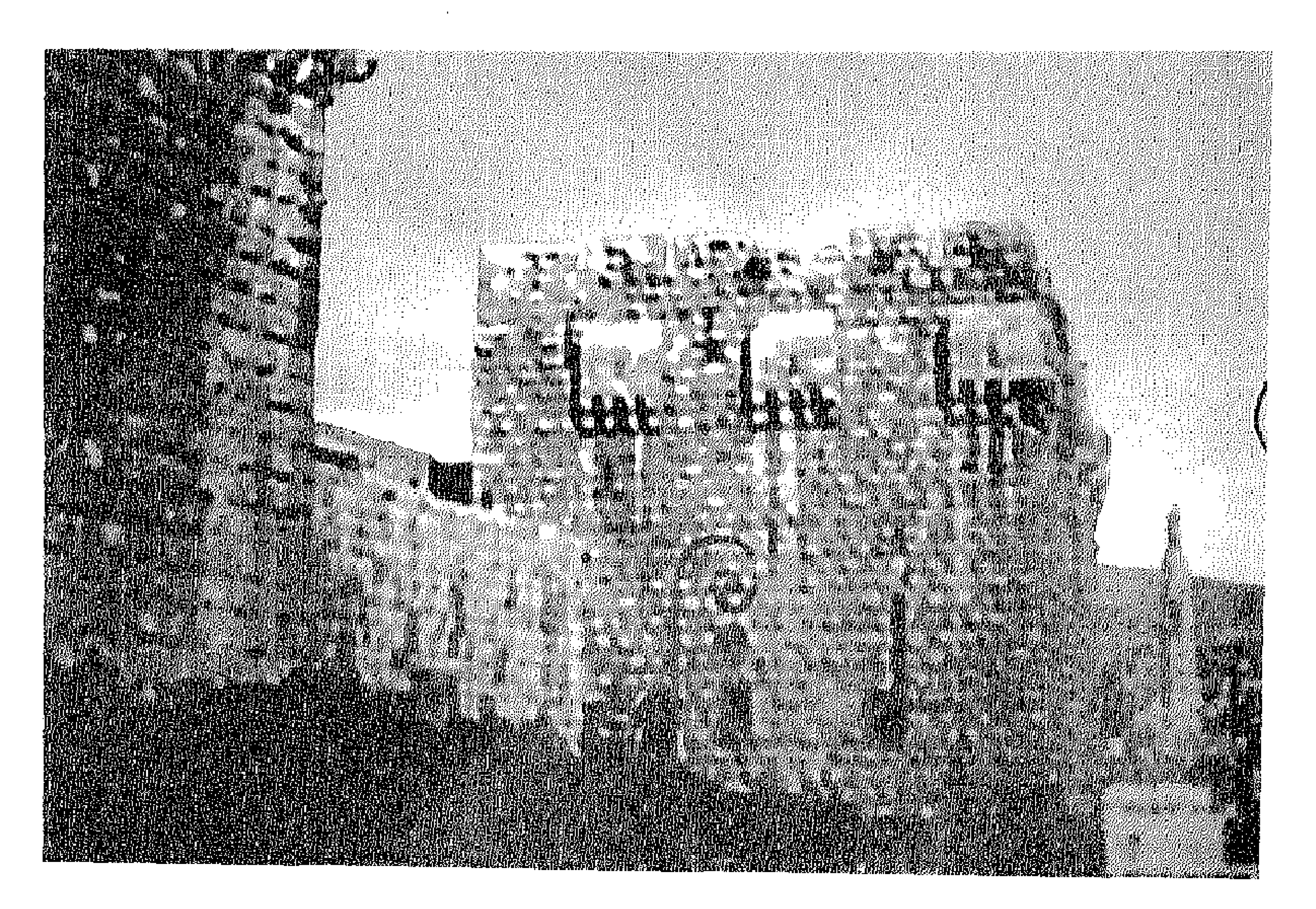


إلى القضاة، وطلب من هؤلاء القضاة أن يطبقوا حدود الشرع ولا يتعدوها، وقد عبر الأصفهانى عن ذلك بقوله : « ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للحاكم أى القاضى - وكان كمال الدين الشهر زورى -: انظر أنت فى العوادى وما يجرى فيها من الدعاوى، وميز بين المحاسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة».

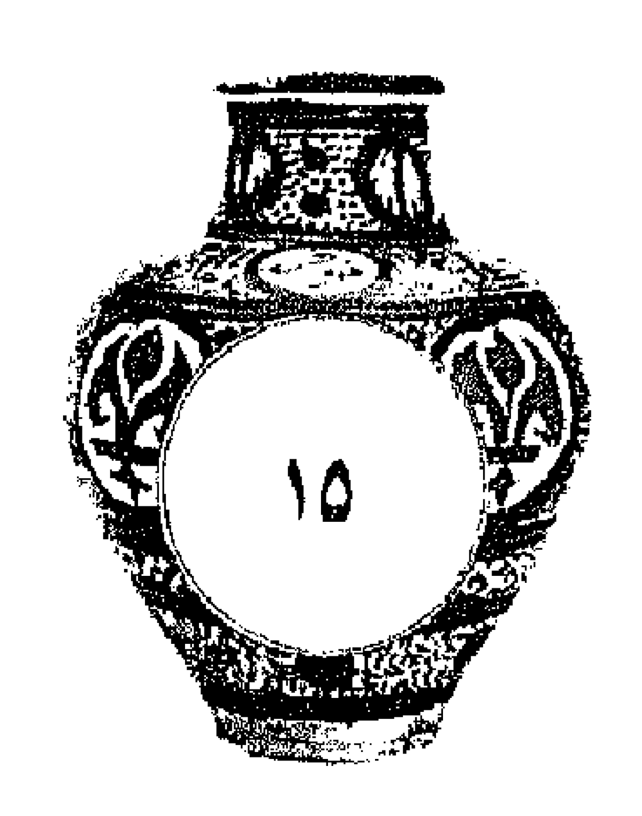
وساء الجند والقواد ورجال الدولة إلغاء وظيفة الشحنة، وتقديم القضاة عليهم، فلجأوا إلى أهل الصوفية والزهاد لرد نور الدين عن رأيه، ووسط هؤلاء الشيخ عمر الملاء - وكان من الصالحين الزاهدين - فكتب الشيخ عمر من الموصل يقول لنور الدين : « أن الدعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى سياسة، ومثل هذا لا يجىء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان فى البرية من يجىء يشهد له » فكتب إليه نور الدين على ظهر كتابه : « إن الله خلق الخلق، وشرع لهم الشريعة، وهم أعلم بما يصلحهم، ولو علم أن فى الشريعة زيادة فى المصلحة لشرعها لنا، فلا حاجة لنا إلى الزيادة على ما شرعه الله تعالى». فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملاء، جمع الناس بالموصل، وقرأ عليهم الكتاب، وجعل يقول : « انظروا إلى كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد ».

اشتد نور الدين، وعزم على ألا يولى أمور الحكم بين الناس إلا إلى القضاة، حتى نوابه على المدن والأقاليم أمرهم ألا يقطعوا برأى فى أمر دون رأى الفقهاء والقضاة حتى يتأكدوا من اتفاقه مع الشرع.

واهتم نور الدين اهتماما خاصا بالقضاء، وأنشأ دار للعدل بدمشق فيذكر ابن الأثير : « كان نور الدين أول من بنى دار للكشف أو لكشف المظالم، وسماها دار العدل وهى أشبه بمحكمة عليا، يتولى نور الدين رئاستها بنفسه، وكان بابها مفتوحا لكل الناس، أما عن السبب الذى دفعه لبناء هذه الدار فتذكر المصادر: أنه لما طال مقام نور الدين بدمشق، وأقام بها امراؤه، وفيهم أسد الدين شيركوه - وهو أكبر أمير معه - اقتنوا الأملاك، واشتروا الدور والعقارات بالأثمان التى يريدونها، مستغلين فى ذلك



قلعة دمشق التى بناها نور الدين محمود لمواجهة الصليبيين



جـاهـهم، بل وتعدى كل واحـد منهم على من يجـاوره فى قـرية أو غيـرها، فكثرت الشكاوى منهم إلى القاضى كمال الدين الشـهرزورى، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يـسـتطع أن ينصف من تظلمـوا أو اشـتـكوا من أسـد الدين شيركـوه، فرفع الأمر إلى نور الدين، وعندئذ أمـر نور الدين ببناء دار للعدل، وأعلن أنه سيـجلس فيها للفـصل فى القضايا، فلما سـمع أسد الدين بذلك، أحضر نوابه جميعا وقال لهم : « اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببى وحدى ». وأمرهم بأن يفضـوا ما بينهم وبين الناس من منازعات، ويرضوهم بـأى شىء وبأى شكل. فقالوا له: « إن الناس إذا علموا ذلك، اشتطوا فى الطلب »، فقال لهم : خروج أملاكى عن يدى أسهل على من أن يرانى نور الـدين بعين أنى ظالم » فـأسـرع رجاله إلى إرضـاء الناس، مـا أمـرهـم به وأرضوا خصماءهم.

ولما تم بناء دار العدل جلس فيها نور الدين، للفصل فى القضايا والخصومات، وكان يجلس فى الأسبوع يومين، وعنده القـاضى والفقهاء من سائر المذاهب لاعـتمادهم كمجلس اسـتشارى، لاتخاذ القرارات النهائية، استـنادا إلى أحكام الشريعة، وظل نور الدين على هذه الحال مدة، ولم يحضر إليه أحد يشكو من أسد الدين، فسأل القـاضى كمال الدين عن الأمر، فقص عليه القاضى ما جرى فقال : « الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا ».

ثم رفع نور الدين مدة جلوسه بدار العدل من يومين إلى أربعـة أيام أو خمسة أيام لينظر فى أمـور الرعيـة، ويكشف المظالم، ولا يطلب مـقابل ذلك درهمـا ولا دينارا، ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما كان يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلبا للثواب والزلفى فى الآخرة.

جعل نور الدين باب دار العدل مـفتوحا أمام الجميع، فكان يأمـر بإزالة الحاجب والبواب، حتى يصل إليه الضعيف والقوى، الفقيـر والغنى، ويكلمهم بأحسن كلام، ويستفهم منهم، وذلك حتى لا يطمع الغنى فى دفع الفقير بالمال، ولا القوى فى دفع الضعيف بالكال. كذلك كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان، وكـان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يعهد بذلك إلى حاجب أو أمير.

أمر نور الدين أصحابه وأعوانه، بأن يرفعوا إليه جميع القصص (أى الشكاوى)، ولا يعلموا على مظلمة أو شكوى أو ينظروا فيـها قبل أن يرفعوها إليه، وكان يقـول لهم : « فبالله عليكم لا تريان قصة مظلوم ترفع إلىَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلمانى بها وارفعاها إلىَّ».

كان نور الدين يعتمد فى إصدار أحكامه على الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها ويقول: «نحن نسخـر لها ونمضى أوامـرها» كذلك لم يكن يصـدر العقوبـة على الظنة والتهمـة بل يطلب



الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد.

وضرب نور الدين بنفسه المثل، فحرص على أن يحضر إلى مجلس القاضى إذا طلبه، إيمانا منه بحرمة القضاء، من ذلك أن رجلا ادعى حقا فى بعض أملاكه، فحضر أمام القاضى كمال الدين، وقال للقاضى : «إنى قد جئت محاكما، فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى ». فنظر القاضى وتبين أنه لاحق للرجل فيما ادعى. فقال نور الدين للقاضى ولمن حضره هل ثبت له عندى حق؟ فقالوا : لا، قال : «اشهدوا إنى قد أوهبته هذا الملك الذى حاكمنى عليه، وهو له دونى، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندى، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته، فحين ظهر أن الحق لى وهبته له ».

أورد المؤرخ أبو شامة العديد من القضايا التى نظرها نور الدين بنفسه. ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يرويه أبو شامة من أن صبيا حضر إلى الملك العادل نور الدين وبكى، وذكر له أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجرات الوقف، فسأل عن حاله، وعرف أنه ابن الشيخ أبى سعد الصوفى، وهو رجل زاهد، وليس لديه القدرة على دفع الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه تراكمت عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل عن الأجرة، وعرف أنها مائة وخمسون قرطاسا (القرطاس الواحد= ١٥٠ درهما)، فرق له، وقال : « نحن نعطيه كل سنة هذا القدر، ليصرفه إلى الأجرة، ويقعد فيها ». وأمر بإخراجه من الحبس.

وقد أشاد المؤرخون والشعراء بعدل نور الدين فيقول ابن الأثير: « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه، وقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها » وعلق أبو شامة على قول ابن الأثير بقوله: « فلو كان فى أمة لافتخرت به، فكيف ببيت واحد».

وقد امتدح الشعراء عدله فقال محمد بن نصر القيسرانى :

قد هديت الملوك للعدل لما　　　سرت فى الناس سيرة الخلفاء

وقال الأصفهانى :

محمد يحمد عيش بلدة　　　مالكها بعدله محمودها

كما شهد خصومه كذلك بعدله فيذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى: « كان نور الدين عدلا شجاعا فطنا».

ظل عدل نور الدين يترك آثاره الواضحة حتى بعد وفاته، فيروى البعض أنه تعدى بعض أمراء صلاح الدين الأيوبى على رجل، وأخذ ماله، فجاء الرجل إلى صلاح الدين، فلم يأخذ له بيد، فجاء إلى قبر نور الدين وشق ثيابه، وحثا التراب على رأسه، وجعل يستغيث يا نور الدين أين أيامك! ويبكى، فبلغ صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله، فازداد بكاؤه، فقال له صلاح الدين : ما يبكيك وقد أنصفناك ! فقال : إنما أبكى على ملك أنصفت ببركته، وبعد موته، فكيف يأكله التراب ويفقده المسلمون! .

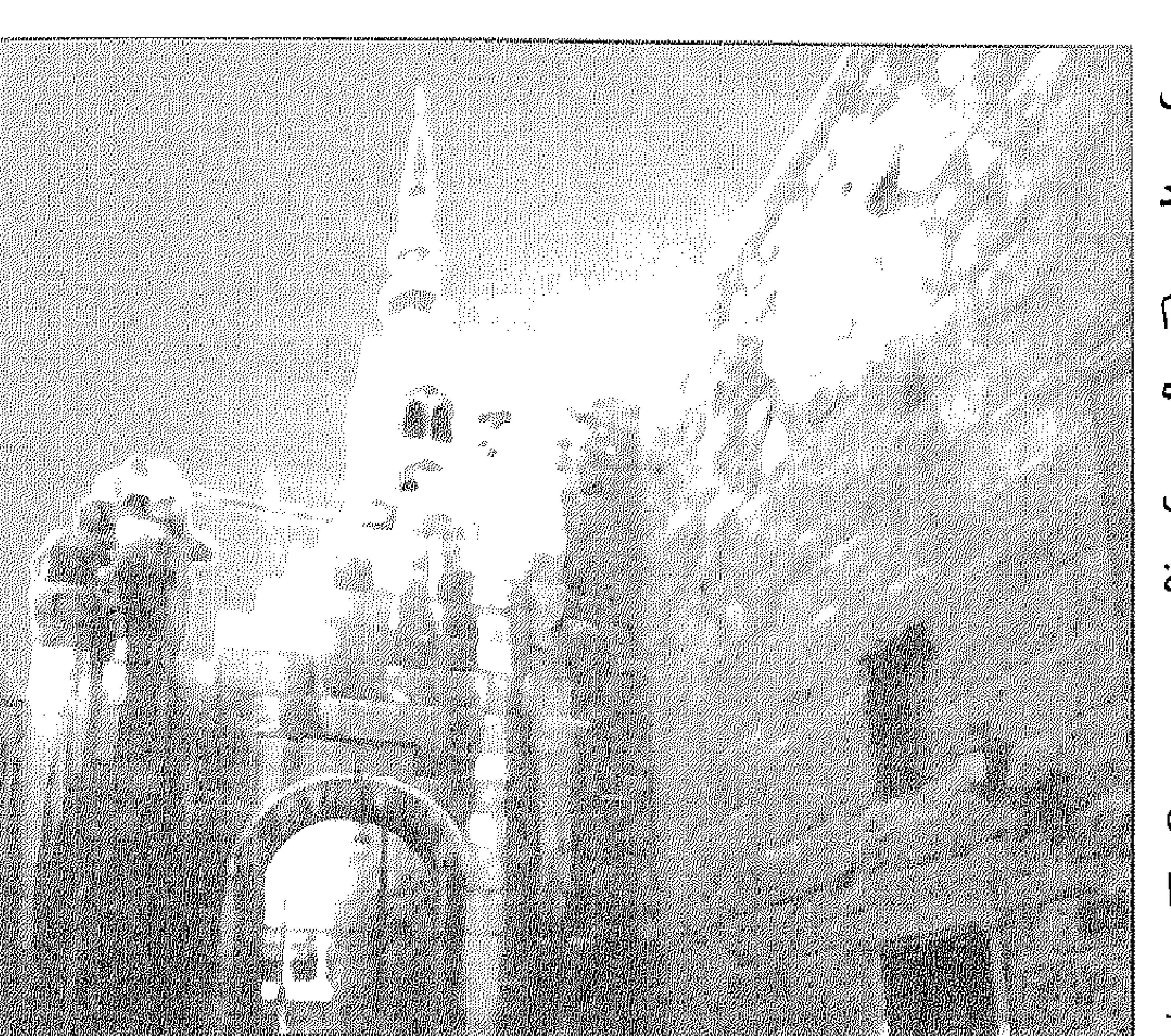
ومن أشهر قضاة نور الدين محمود القاضى زكى الدين أبو الحسن على بن محمد بن يحيى، وقد سأل نور الدين فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م الإعفاء من القضاء واستبداله، فأجابه إلى طلبه، وولى قضاء دمشق القاضى كمال الدين الشهرزورى، وهو المشهور بالتقدم، ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بالقوانين والأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، كما يروى ابن القلانسى، وكتب له نور الدين منشورا بتعيينه، وأنه فى حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة، ينوب عنه ولده محى الدين فى منصبه، ولم تكن مهمة كمال الدين مقتصرة على القضاء وحده بل إنه أشرف على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستانها (المستشفى)، ودار العدل بها على نحو ما سنرى، إذ كان فقيها واسع العلم حسن الرأى، فصيح العبارة.

وقد لعب آل الشهرزورى دورا كبيرا فى قضاء الدولة النورية، فإذا كان كمال الدين قاضى قضاة دمشق، فإن ابنه محى الدين كان ينوب عنه فى قضاء حلب وبلدانها، وينظر أيضا فى أمور ديوانها، وبحماه وحمص كان من بنى الشهرزورى قاضيان وهما حاكمان متحكمان كما يذكر أبو شامة.

اعتمد نور الدين كذلك على الشيخ شرف الدين أبى سعد بن عصرون فى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضى القضاة، ينوب عنه فى سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه هذا إلى جانب اشتغاله بالعلم.

ثانيا : المال والتجارة :

عنى نور الدين بالنواحى المالية عناية كبيرة، وحرص على التزام أحكام الشريعة فى جباية الضرائب لتخفيف الأعباء المالية عن كاهل الناس، لذلك استقر رأيه على أن يلغى الضرائب والمكوس، وقد استشار نور الدين مستشاريه فى هذا الصدد ومنهم أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين - وكان نور الدين لا يفعل شيئا إلا بمشورته - استشاره فى إبطال الضمانات بأسرها، والمؤن والمكوس، غير أن أسد الدين اعترض على ذلك، وجاء رأيه مخالفا لنور الدين، وأرسل إليه يقول



دروب وأسوار دمشق القديمة

له : « إذا فعلت ذلك، فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين نعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة وخروج العساكر ».

يبدو أن نور الدين اقتنع بوجهة نظر أسد الدين، وترك هذا الأمر مدة، ومضى يتدبر الأمر بضعة أيام ثم أصدر امرأ بإطلاق المكوس والأعشار غير الشرعية وإلغائها، وكتب للمسلمين : «إنى قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، وأثبت عليكم ما أثبته عليكم ».

وأصدر نور الدين منشورا بإسقاط المكوس والضرائب والضمانات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق فى دمشق حينما دخلها فى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م.

وفى رجب من عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م تجمع قوم من سفهاء العوام وعزموا على تحريض نور الدين على إعادة ما كان أبطله من المكوس، وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ، وعرصة البقل والأنهار وغيرها، فى مقابل ضمان يدفعونه يقدر بعشرة آلاف دينار، وكتبوا بذلك فأجابهم إلى ما طلبوه، وعندئذ شرعوا فى فرضها على أصحاب الأملاك المقدمين والأعيان والرعايا، وعجز الناس عن الدفع، فأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى الملك نور الدين، فأمر بإعادة الرسوم المعتادة إلى ما كانت عليه، وتبرع من نفسه بإبطال ضمان الهريسة والجبن واللبن، وأصدر بذلك منشورا يقرأ على الناس، بإبطال هذه الرسوم جميعها. مما يدل على اهتمام نور الدين بشئون التجار والزراع وأوساط الناس.

أبطل نور الدين فى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م مظالم ومكوسا ببلاده كلها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار. كذلك أبطل فى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م ما بقى فى بلاده من الأعشار والمكوس والضرائب، فيروى أبو شامة أن الشيخ برهان الدين البلخى، أنكر على نور الدين استعانته فى حروب الكفار بأموال المكوس، وقال له مرة : « كيف تنصرون وفى عساكركم الخمور

والطبول والزمـور كلا وكلا. . . » فلما سـمعه نور الدين قـام ونزع عنه ثيابه، وعاهد الله على التوبة، وشرع فى إبطال المكوس.

لم يغفر نور الدين لنفسه مـا جباه من الضرائب والمكوس الباطلة، فكان يصلى، ويرفع يديه إلى السماء، ويبكى ويتضرع ويقول : « اللهم ارحم العشار المكاس ». وكان يعتذر للناس عن أخـذها منهم ويقول : « والله ما أخرجناها إلا فى جهاد عدو الإسلام ».

وأطلق نور الدين فى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م بعض ما كان قـد بقى من المظالم والمؤن، كما أعفى أهل دمـشق فى العام التـالى ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م من المطالبة بالخشب، وأسـقط نور الدين فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م العديد من الضرائب والغرامـات والمكوس كذلك، وأصدر منشورا بذلك من إنشاء العـماد الأصفهـانى جاء فيـه: « قد قنعنا من كنز الأموال باليـسير من الحـلال. . . وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة فى كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة. . . وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفا من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى فى ولايتنا جور جائر. . . ».

تتبع نور الدين فى العام التالى ٥٦٧هـ/ ١١٧١م المظالم والمؤن فى جـميع البلاد التى بيده، فأزالها وعـفى رسومها، ومحا آثار المـنكرات والفواحش بعدما أطلق من ذلك فى تواريخ متـقدمة كما يذكر ابن العـديم. ومن أمثلة ذلك ما أسقط فى مصر من رسـوم فى هذا العام تضمنت : ما يستخرج لديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج من الأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار وغيرها.

وقد أورد المؤرخ ابن واصل سجلا نادرا مفـصلا بالمكوس والضرائب التى أطلقها نور الدين فى جميع البلاد التى حكمهـا فى سنوات حكمه المختلفة (رجب ٥٦٧هـ/ ١١٧١م) وجاء فى هذا السجل مـا يلى : « ذكر ما أطلق من الرسـوم والمؤن والمكوس والضرائب فى سائر أعـمال الولاية المحروسـة شامـيها وجـزيرتها فى تواريـخ متقـدمة. وفى تاريخ هذا السـجل، رسم إطلاق ذلك كله. . . كان يـحصل من الضرائب فـى كل سنة خمسـمائة ألف وسـتة وثمـانون ألفا وأربعـمائة وسبعون دينارا نقدا. فمن بلاد الشام ودمشق كان يحـصل من قبل مبلغ مائتا ألف وعشرون ألفا، وخمسمائة وثلاثة وثمانون دينارا، أما فى تاريخ هذا السجل فكان يحـصل خمسون ألفا وسبعمائة وثلاثون دينارا ثم يورد ابن واصل سائر بلاد الشام وما كان يجبى منها من مكوس وأبطلت.

ثم يورد بعد ذلك سـائر بلاد الجزيرة الفراتيـة وما أبطل فيـها من مكوس. وجاء فى خـتام السـجل مـا يلى : «. . . وأيقنوا أن ذلك الإنعـام العـام مـسـتـمر عـلى الدهور، وباق إلى يوم النشور. . . وسبيل كل واقف على هذا المثال من الولاة والنواب والأصحاب والأعمال والعمال. .



حذف ذلك كله، وتعفية رسومه، ومحو آثاره. . وإطلاقه على الإطلاق من غير تبديل يحل عقده ولا فسخ يكدر ورده. . . ».

وبعد إصدار هذا السجل بعامين أى فى عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، كتب نور الدين منشورا بإبطال فريضة الأتبان، ويذكر أبو شامة أنه رأى هذا المنشور وعليه علامة (أى توقيع) الملك العادل نور الدين، ومما جاء فيه «. . وأطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال. . . وإبطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين ».

أصدر نور الدين محمود فى نفس العام (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) أمرا بأن تكتب المناشير لجميع البلاد، بإطلاق الطراف من الرسوم، فما بقى سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمة الغلات، ويذكر العماد الأصفهانى فى هذا الصدد : « وأمرنى بكتابة مناشير لجميع البلاد، فكتبت أكثر من ألف منشور ».

جملة القول أن نور الدين لم يترك فى بلد من بلاده - ممثلة فى بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها- ضريبة ولا مكسا ولا عشرا، بل أطلقها جميعا، كذلك أزال نور الدين المكوس بطريق الحجاز، فيذكر الرحالة ابن جبير : « ومناقب هذا الرجل الصالحة كثيرة. . . . وله الأثر الباقى شرفه من إزالة المكوس بطريق الحجاز، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز، وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة إلى أن محا الله رسمها على يد هذا الملك العادل».

وإذا كان نور الدين قد ألغى الضرائب غير الشرعية، فإن إيرادات دولته تمثلت فى الضرائب الشرعية وكانت أكبر حجما وأكثر عطاء، ودواما وقبولا لدى أبناء البلاد التى حكمها، وهذه الضرائب ممثلة فى الخراج (ضريبة الأرض) والجزية (ضريبة الرأس)، وزكاة الأموال، ولم يتهاون نور الدين فيها مطلقا لأنها تمثل حقا شرعيا ثابتا. وكانت غنائم الحروب مع الأعداء تمثل موردا هاما آخر من إيرادات الدولة، بل من أوسعها، لأن الدولة كانت فى حروب دائمة مع الأعداء، وكانت إيرادات الدولة النورية هذه تحقق الموازنة المالية الدائمة للدولة وتحميها من العجز والإفلاس.

وكان نور الدين لا يقبل أن يدخل بيت المال أى مال من غير المقرر أو بغير حق خشية أن يسأل عليه يوم القيامة ويحمل وزره، فيروى أبو شامة أن نور الدين دخل يوما إلى خزانة المال، فرأى فيها مالا أنكره، فسأل عنه، فقيل أن القاضى كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا، فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال فى هذه الجهة شىء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين



ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين، فرده إلى الخزانة مرة أخرى، وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عنى أنه له... فرده ثانية وقال لرسول كمال الديـن : «قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، أما أنا فرقـبتى دقيقة لا أطـيق حمله، والمخاصمة عليـه بين يدى الله تعالى ». ويتضح من ذلك مدى خـشية نور الدين ونزاهته وتجرده وحـرصه على الأموال العامة.

اهتم نور الدين بإصلاح الدواوين المالية ومنهـا ديوان المواريث الحشرية - أى تركة من يموت دون أن يترك وريثا أو يترك وريـثا لا يستحق كل الميراث، فيذكـر العماد : «ولم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل ولا لديوانـه طائل، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل من الحشـرى للقاضى كمال الدين، فلما صار ثلثه للقاضى أزال نوايه ونوابيه، وصرفوا عنه شايبه ووفروه وكثروه...».

وحرص نور الدين أيضا على حـفظ أموال اليتامى فيذكر أبـو شامة : قال لى والدى : أنه دخل فى أيام نور الدين تاجر مـوسر - إلى حلب - فمات بها، وتـرك ولدا صغيرا ومالا كـثيرا، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له : أنه مات هاهنا تاجـر موسر، وترك عشرين ألف دينار وفوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير، فيرضى منه بـشىء، ويترك الباقى للخزانة، فـرد عليه نور الدين: « أما الميت فرحـمه الله، وأما الولد فأنشاه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعى فلعنه الله ». مما يظهر مدى حرص نور الدين على مال اليتيم فهو من حقه طالما أنه وريث له، ولا حق للدولة فيه.

عاون نور الدين فى إدارة الشئـون المالية بالدولة النورية عدد من الشخصيـات البارزة منها : الشيخ الأمين مخلص الدين أبو البـركات عبد القاهر بن على، وقد وصفـه ابن القلانسى بأنه كان «كاتبا بليغا، حسن الخط.. مع صـفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء ». وقد شغل منصب الأمين على خـزائن مـال الملك العادل نور الـدين محـمـود، ثم تولى هذا المنصب من بعـده ولى الدين إسماعيل ثم عزله منه وأمره بتسليم ما كان عنده لخاله القيسرانى، الذى حل محله، وأصبح كذلك مستوفـيا للدولة النورية ومهمته الإشراف على حـسابات الدولة وتدقيقها، وضـبط الأموال المتعلقة بالجيش وإدارة ديوان الاستيـفاء. وعندما كان القيسرانى يـذهب إلى مصر للقيام بمهام ماليـة فيها، كـان نور الدين يستنيب مكانـه العمـاد الأصفـهانى، إذ يذكـر العمـاد : «فجـمعت بين الإنشـاء والإشراف والاستيفاء».

ورغم محاولة البـعض شراء هذا المنصب - الذى تولاه العماد- بالمال، فقـد بذل فيه رضى الدين يعقوب رئيس سنجـار خمسة آلاف دينار، إلا أن نور الدين رفض وقال : « أما الـعماد فلا نبيع كـفاءة الرجـال بالقناطير المقنطرة من المال » وأصـدر نور الدين أمرا بأن كل من كـان للموفق

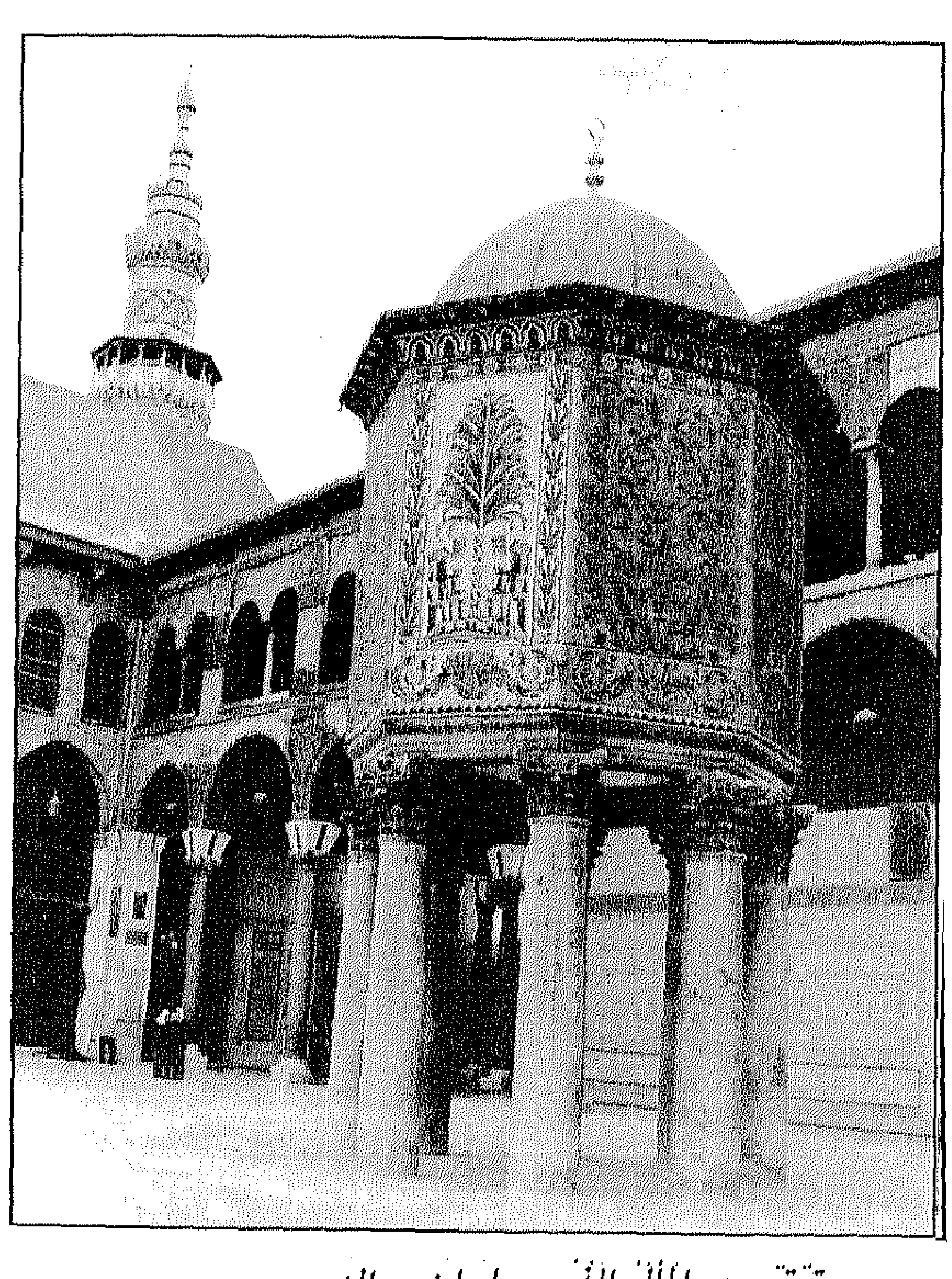


القيسرانى عليه رسم يوصله إلى العماد، فإنه بعده بمحل الاعتماد، ذلك لأن العماد كان يطلعه كل يوم على كل ما يقوم به من عمل، فما أتحف بتحفة، ولا أخص أحدا بعطية إلا أطلعه بها، وأطلعه على سببها، وكان نور الدين يثق فى العماد يقول له : « تصرف فيه، تصرفك فى مالك».

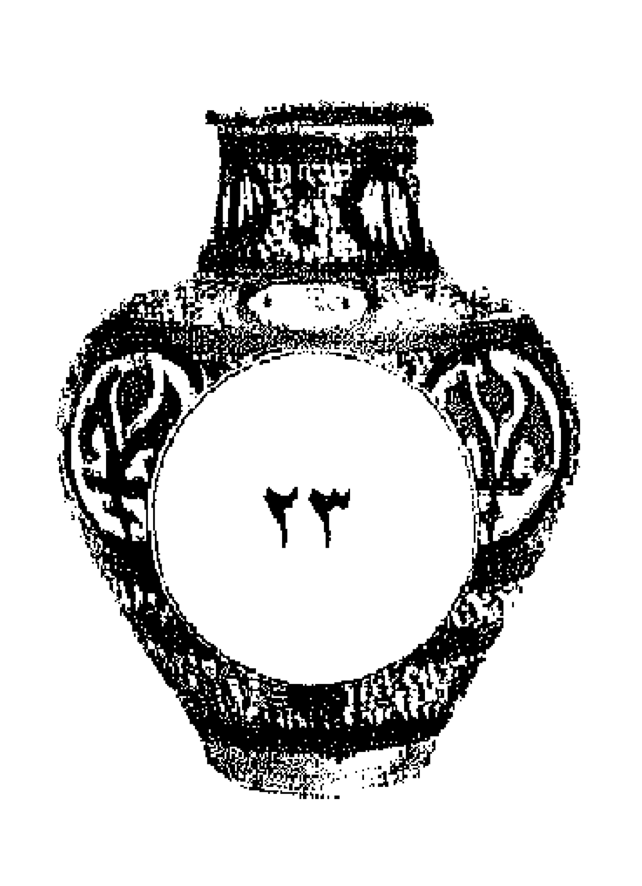
ومع ذلك كان نور الدين حريصا أيضا على محاسبة رجالات دولته، خاصة المخالفين منهم، فعندما ولى أبو سالم بن همام الحلبى الإشراف على الديوان بدمشق (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) كشف التحقيق معه عن خيانته وتقصيره وتفريطه فى أموال الدولة، فألقى القبض عليه، واعتقل، ثم أصدر نور الدين أمرا بكشف خيانته للناس، وعاقبه عقابا قاسيا، وأمر أن يطاف به فى الأسواق بعد سخام وجهه، وينادى عليه : « هذا جزاء كل خائن » ثم نفاه إلى حلب.

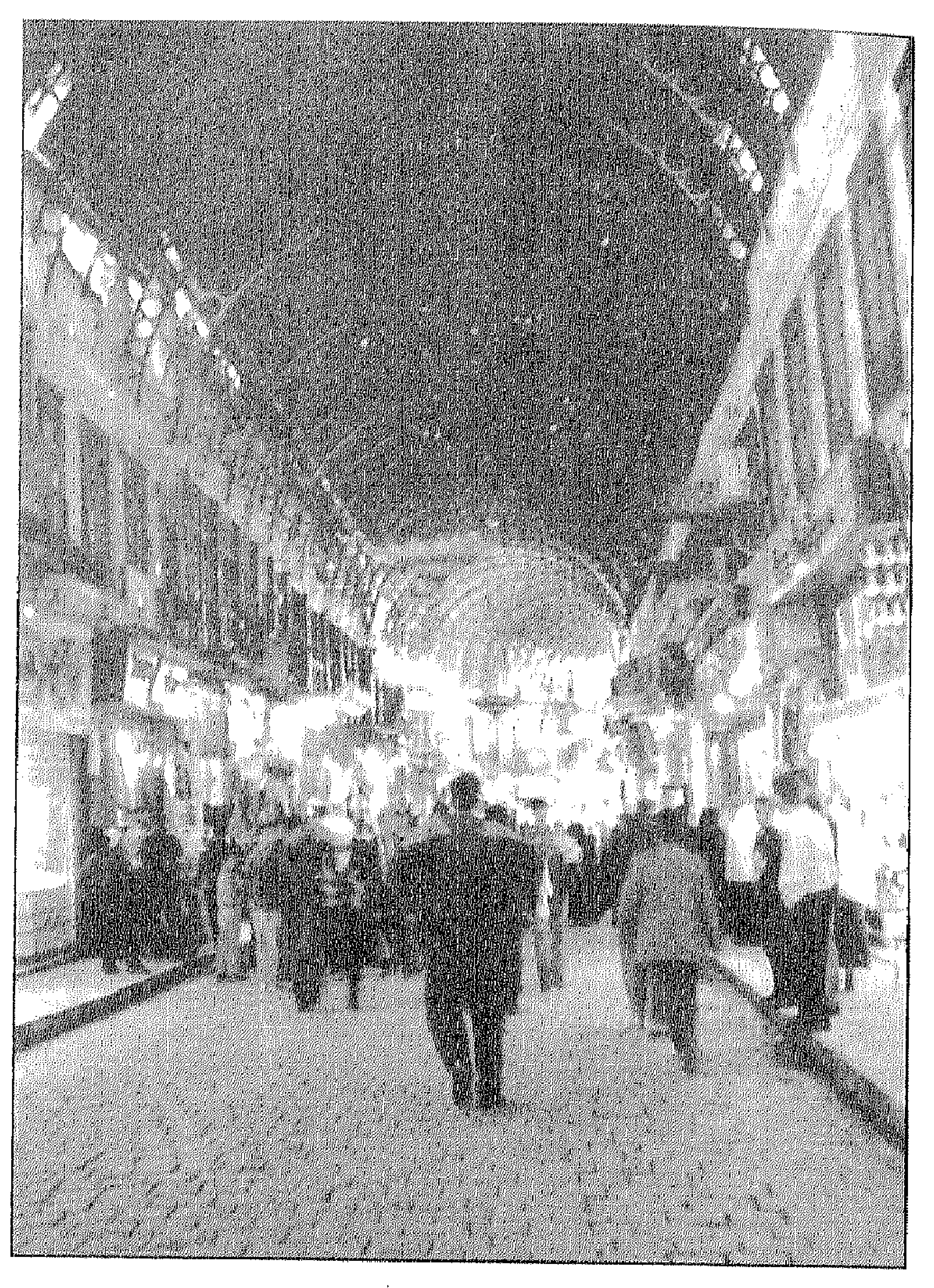
تعددت أوجه الإنفاق فى الدولة النورية ومنها ما كان ينفق على الإعداد للغزو والجهاد والصرف على سبل الخير ووجوه البر والصدقات، والصرف على المدارس وأئمتها ومدرسيها وفقهائها، والصرف على المساجد والبيمارستانات والجسور والربط، وفكاك الأسرى وتعليم الأيتام وإيواء الغرباء وفقراء المسلمين، هذا إلى جانب دفع رواتب موظفى الدولة وغير ذلك.

نشطت الحركة فى الأسواق فى عهد نور الدين محمود، نتيجة لسياسته الخاصة بإلغاء الضرائب والمكوس وإطلاقها، فقد شجع ذلك التجار على إخراج أموالهم، والعمل بالتجارة مما ساعد على ازدهار حركة التجارة فى أسواق الدولة النورية.



قبة بيت المال الذى بناها نور الدين محمود فى المسجد الأموى

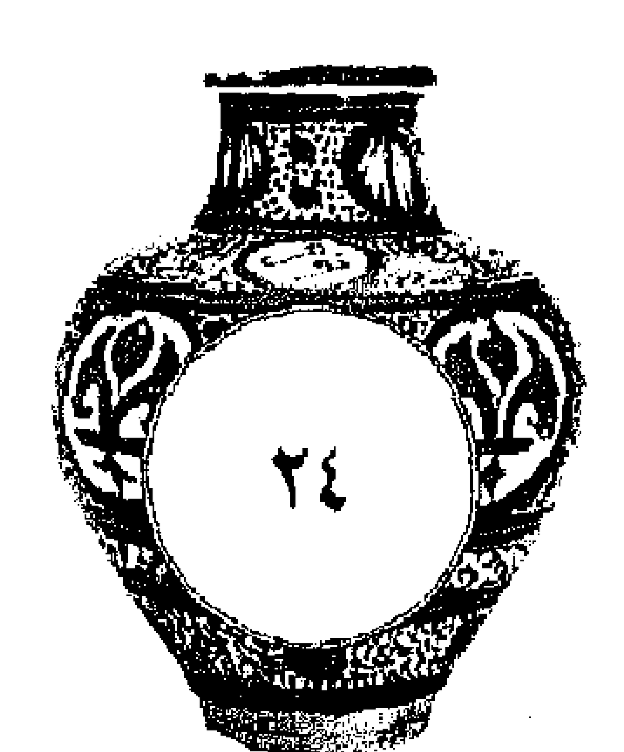




السوق القديم بدمشق

عرف عصر نور الدين العديد من الأسواق المتخصصة، وكان لهذا النوع من الأسواق أكبر الأثر فى حرص التجار على عدم المغالاة فى أسعار سلعهم، إذ يتيح هذا النوع من الأسواق أمام المشترى فرصة كبيرة للمفاضلة بينهم، ومن أمثلة هذه الأسواق المتخصصة فى مدينة دمشق على سبيل المثال لا الحصر، سوق الأغنام، وسوق القمح، وسوق الدقيق، وسوق الفاكهة والطيور، وسوق القلانس والغزل والخيوط وغيرها. على أن أهمها جميعا كانت أسواق العطارين والوراقين، فبالنسبة للعطارين لعب هؤلاء دورا كبيرا فى أوقات انتشار الأوبئة والأمراض، حيث قدموا الوصفات الطبية للعامة، وحققوا من وراء ذلك أرباحا وفيرة. أما سوق الوراقين فقد ازدهر بدوره من خلال المراكز العلمية النشطة التى شهدتها البلاد فى عهد نور الدين محمود، من كثرة المدارس والعلماء وطلاب العلم. ويختص هذا السوق ببيع الورق والكتب القديمة، والأقلام والمداد، وكان سوق الوراقين يضم بعض الفئات التى اشتغلت بالكتابة، كالنساخ والكتبة وعاقدى الزواج وغيرهم.

واشتغل بالنشاط التجارى فى عصر نور الدين أسر معينة، جنت من وراء ذلك أرباحا ضخمة، ومن أمثلة هذه الأسرات التجارية: أسرة الرحبى، وكان من أطباء نور الدين محمود، وكان كما يذكر ابن العبرى « يعانى أى يعمل بالتجارة، ورزق بها مالا جما، وأولاده . . . لهم



اشتغـال جيد فى هذا الفن». كذلـك عرفت فى شيزر أسرة تجـارية أخرى هى أسرة «أبناء عياض» إذا عمل أخوان منهما بالتجارة وهما مظفر الدين ومالك ابنا عياض، وقد سافرا بتجارتهما إلى بغداد وغيرها من البلاد.

شهدت أسواق الدولة النورية ارتفاعا فى الأسعار، وقد نجم هذا الارتفاع عن توقف الطرق التـجارية من ناحيـة وكثرة عـدد السكان من ناحيـة أخرى، فيذكر ابن الـقلانسى فى حوادث سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م « حدث بمدينة دمشق ارتفاع الـسعر لعدم الواصلين إليها بالغلات من بلاد الشـمال على جارى العادة. . وبلغ سعر الحنطة خمـسة وعشرين دينارا. وزاد على ذلك، وأضر ذلك بأهلها من المستوردين والضعفاء والمساكين ».

استمر الارتفاع، فيذكر ابن القلانسى فى العام التالى ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م «وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغـلات ». ويرجع هذا الانقطاع إلى توقف الطرق التجـارية، بسبب الحـصار الذى فرضـه نور الدين على هذه المدينة. وارتفعت الأسعـار فى حلب كذلك فيذكـر ابن العديم. «وارتفعـت الأسعار مع كـثرة الغـلات لكثرة العـالم» هذا فى حين كانت أسـعار السلع قـبل هذا الغلاء، وفى السنة التى مات فيها عـماد الدين زنكى والد نور الدين محمود، (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) الحنطة مكوك (أى قـدحين) ونصف بدينار، والشعـير مكوكان ونصف بدينـار، والعدس مكوك بدينار، والقطن سـتة أرطال بـدينار ». ويظهر من خـلال ذلك مـدى الرخص الذى كانت عليـه السلع.

وقد تم ضـبط الحركة داخل الأسواق عن طريق المحـتسب - الذى يقوم عـمله على أساس دينى وهو الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر - وكـانت مهـمـته داخل السـوق مـراقبـة الموازين والمكاييل،كذلك حالات الغش التجارى، ومعاقبة المخالفين.

تعرضت الأسواق فى عهد الدولة النورية لبعض الأخطار منها ما ينجم عن عمليات السلب والنهب أو الحرائق، مثلمـا حدث فى سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م حينما نهب العامـة سوق على بدمشق وغيـره وعاثوا فـيه فسـادا، كذلك اشـتعل حريـق ضخم (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) بسوق اللـبادين فى دمشق، استمر عدة أيام واحترقت خلاله العديد من المبانى والمتاجر.

وارتبطت الدولة النورية بعـلاقات تجـارية مع العديد من القـوى التجـارية فى عالم البـحر المتوسط، منها الدولة البيزنطية والمدن الإيطالية (جنوه - البندقية - بيزا) ومع الصليبيين الموجودين فى بلاد الشام وخاصـة مملكة بيت المقدس وإمارة إنطاكيـة وإمارة طرابلس، وذلك على الرغم من العداء بين الجانبـين على الصعيدين السيـاسى والعسكرى، بل إن هناك تجارا احتـكروا التجارة مع الصليبيين ومن هؤلاء التاجرين نصر بن قوام، وأبـو الدر ياقوت مولى العطافى، «وهما من مياسر



التجار وكبرائهم وأغنيائهم، المنغمسين فى الثراء، وتجارتهما بالساحل الإفرنجى ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، والقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والفرنج خطير» كما يروى ابن جبير.

اهتم نور الدين بأمر التجار لذلك أمر بتشييد الخانات فى الطريق لإيواء المسافرين والتجار، وأقام فيها من يحرسها ويحرس أموال الناس، فأمنوا وحفظت أموالهم، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر على حد تعبير ابن الأثير، كذلك اهتم نور الدين بحفظ الطرق وتأمينها مما ساعد على إقبال التجار على بلاده وانتعاش حركة التجارة فى دولته.

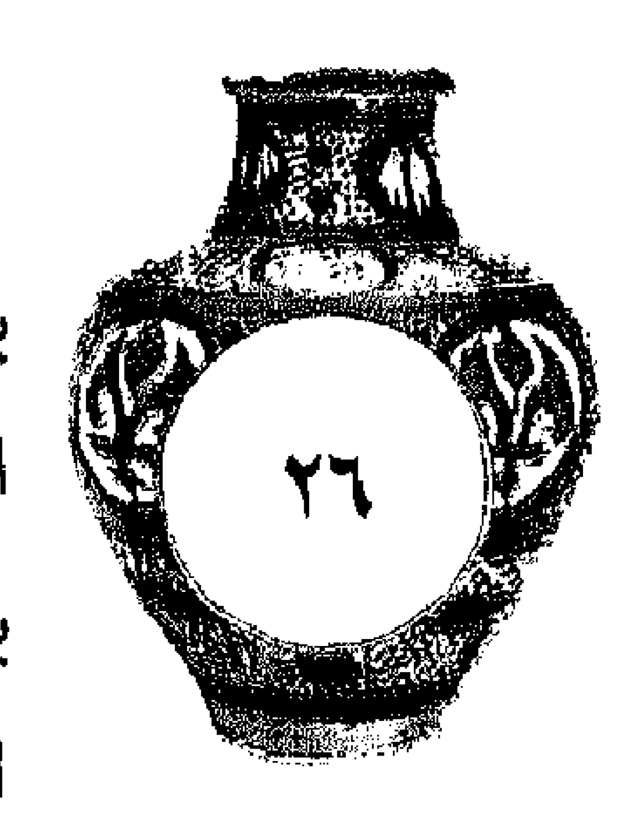
أما عن العملة التى جرى التعامل بها فى أسواق الدولة النورية فكانت الدينار وكسوره المعروفة باسم القراطيس، وكان الدينار قد اختل واضطرب عياره، واختلف عدد ما فيه من القراطيس، فصارت حينا ستين وحينا سبعة وستين، واختفت الدنانير من الأسواق، وأصبح التعامل بها اسما، فاقترح الناس على نور الدين أن يلغى ذلك كله، ويضرب دينارا باسمه ثابت القيمة «وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية». فقال: «إذا ضربت الدينار، وأبطلت المعاملة بالقراطيس، فكأنى خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، أى شىء يعمل به ؟ فيكون سببا لخراب بيته».

فأى شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية !

ثالثا : العلم والدين

أدرك نور الدين أهمية العلم وقدره حق قدره، لأنه كان عالما قبل أن يكون حاكما، وكذلك نشطت الحركة العلمية فى عهده نشاطا ملحوظا، فقد حرص نور الدين على تشييد المدارس فى كل بلد دخل تحت سلطانه خاصة حلب وحماة ودمشق وغيرها، ومن أشهر المدارس التى شيدها نور الدين بحلب (المدرسة الحلاوية) وشرع فى تشييدها عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وجدد بها فى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م مساكن يأوى إليها الفقهاء (أى الطلاب) وأيوانا.

وأصبحت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتا، وأكثرها طلبا، وأغزرها جامكية (راتب)، وأوقف عليها نور الدين أوقافا، وجعل من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس تصرف فى كل شهر رمضان، كما يصنع بها طعاما للفقهاء أى للطلاب، وتوزع عليهم حلوى معلومة فى ليلة النصف من شعبان فى كل سنة، ويصرف لكل فقيه ثمن لباس فى الشتاء، وفى الموالد والأعياد تقدم لهم الحلوى ودراهم معلومة، وفى أيام الفاكهة، يصرف لهم ما يشترون به من أنواعها بطيخا وتوتا ومشمشا.

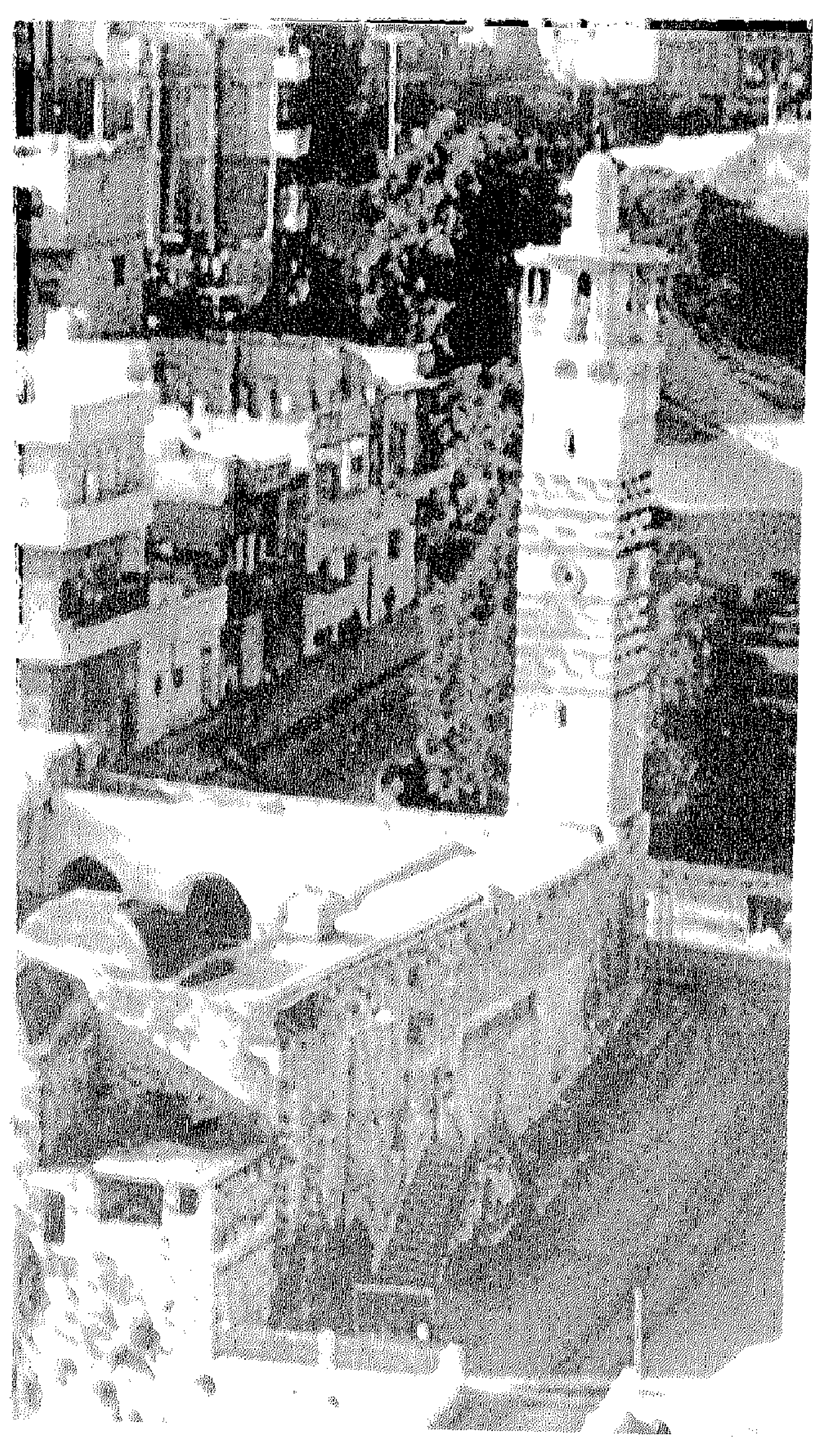


استدعى نور الدين بعض المشايخ للتدريس بهذه المدرسة ومنهم الشيخ برهان الدين أبو الحسن على البلخى الحنفى - وكان فى دمشق - وولاه التدريس بهذه المدرسة، وعلى أثر ذلك قام الشيخ برهان الدين باستدعاء الشيخ برهان أبا العباس أحمد السلفى من دمشق كذلك ليكون نائبا عنه فيها، وظل البلخى يدرس فى هذه المدرسة إلى أن غادر حلب إلى دمشق ثانية.

شيد نور الدين بحلب أيضا (المدرسة النورية) فى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م وكان الشيخ قطب الدين مسعود بن محمد النيسابورى أول من درس بها.

وأنشأ نور الدين كذلك (المدرسة العصرونية) فى حلب عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وتقع هذه المدرسة داخل بابى الفرج والنصر شرقى القلعة، وعند سويقة باب البريد، وخصصها لتدريس المذهب الشافعى، وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، وأوقف عليها العديد من الأوقاف، وشرط ألا يزيد عدد فقهائها على عشرين فقيها على المذهب الشافعى، واستدعى لها الإمام الشيخ شرف الدين أبا سعد عبد الله بن على بن عصرون التميمى (٤٩٢- ٥٨٥هـ) الموصلى الشافعى، وولاه التدريس بها، والنظر فيها، وهو أول من درس بها لذلك عرفت به، وقد درس على يديه عدد كبير من الفقهاء، وانتفعوا بعلمه، وصنف كتبا كثيرة فى الفقه، ووصف بأنه « أفقه أهل عصره ».

كما شيد نور الدين ثلاث مدارس فى مدينة حماه فيذكر الرحالة ابن جبير أنه وجد فى حماه «ثلاث مدارس» وذلك عندما مر بها فى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م، ويذكر ابن واصل «وبحماه مدرستان إحداهما للحنفية والأخرى للشافعية، أما المدرسة الثالثة فهى المدرسة النورية الشافعية المعروفة أيضا «بالعصرونية» وقد بناها نور الدين، وسميت باسم ابن أبى عصرون الذى تولى التدريس فيها. وتجدر الإشارة إلى أن نور الدين



الجامع القديم بحماه

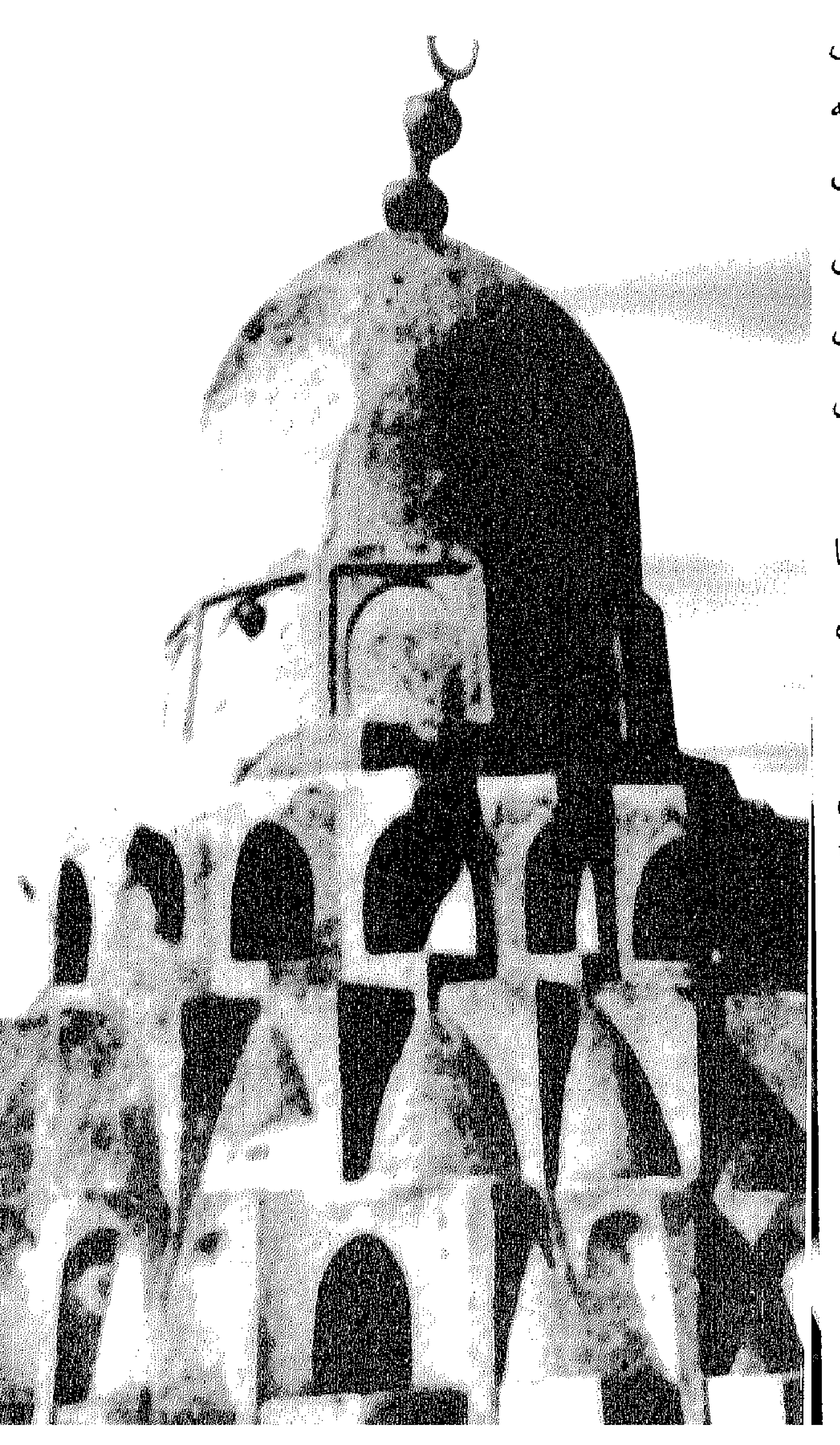
بنى لابن عصرون عدة مدارس أخرى سميت باسمه، منها واحدة فى حماه وأخرى فى حمص وثالثة فى منبج ورابعة فى بعلبك وخامسة فى دمشق، وفوض إليه أن يولى التدويس فيها من يشاء ؛ وذلك رغبة من نور الدين فى الاستفادة من كفاءة هذا الرجل إلى أقصى مدى.

وبنى نور الدين فى دمشق المدرسة النورية الشافعية الكبرى، والمدرسة النورية الحنفية الصغرى أما الأولى فتقع بخط الخواصين، وأنشأها فى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، وقد وصفها الرحالة ابن جبير وصفا طريفا فقال : «ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين، رحمه الله. . وهى قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة إلى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار من حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله».

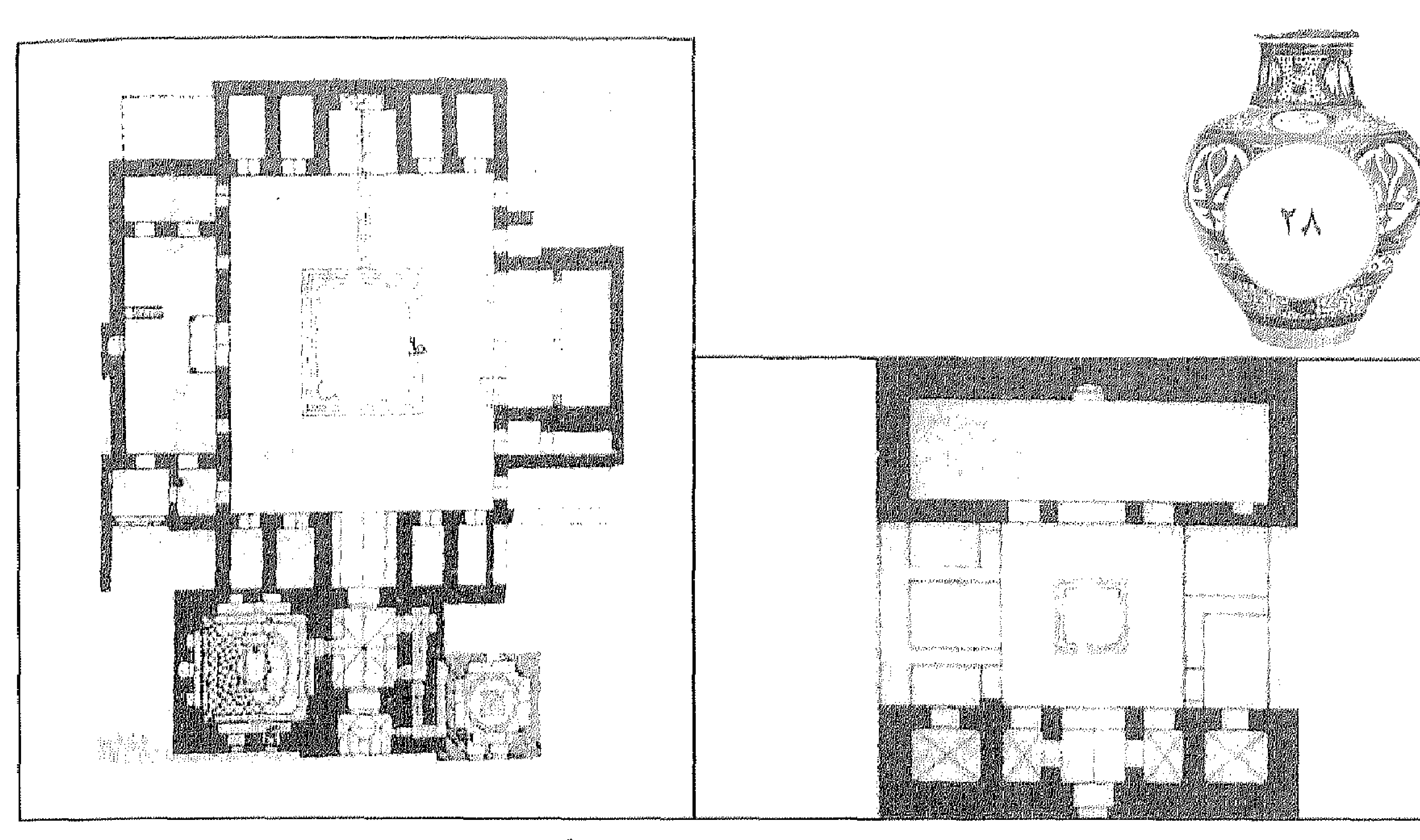
وقد عرفت هذه المدرسة « بالمدرسة العمادية » كذلك نسبة إلى العماد الأصفهانى الكاتب، ونسبت إليه لكثرة إقامته بها وتدريسه فيها وكان نور الدين قد ولاه إياها فى رجب من عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بعد الشيخ الفقيه ابن عبد. ويذكر العماد : «فوض إلىَّ المدرسة التى بحضرة حمام القصير، وعول على فى التدريس بها، والنظر فى أوقافها».

وكان العماد كما يذكر النعيمى : «بارعا فى درسه، يتزاحم عليه الفضلاء لفوائده وفرائده».

أما المدرسة النورية الحنفية الصغرى فتقع بجامع قلعة دمشق، ومن أشهر من درس بها الشيخ بهاء الدين عياك، وكان خطيبا بالجامع، كما كان رجلا فاضلا، كذلك قام بالتدريس فى هذه المدرسة العديد من المشايخ أحصاهم النعيمى فى كتاب الدارس فى تاريخ المدارس.

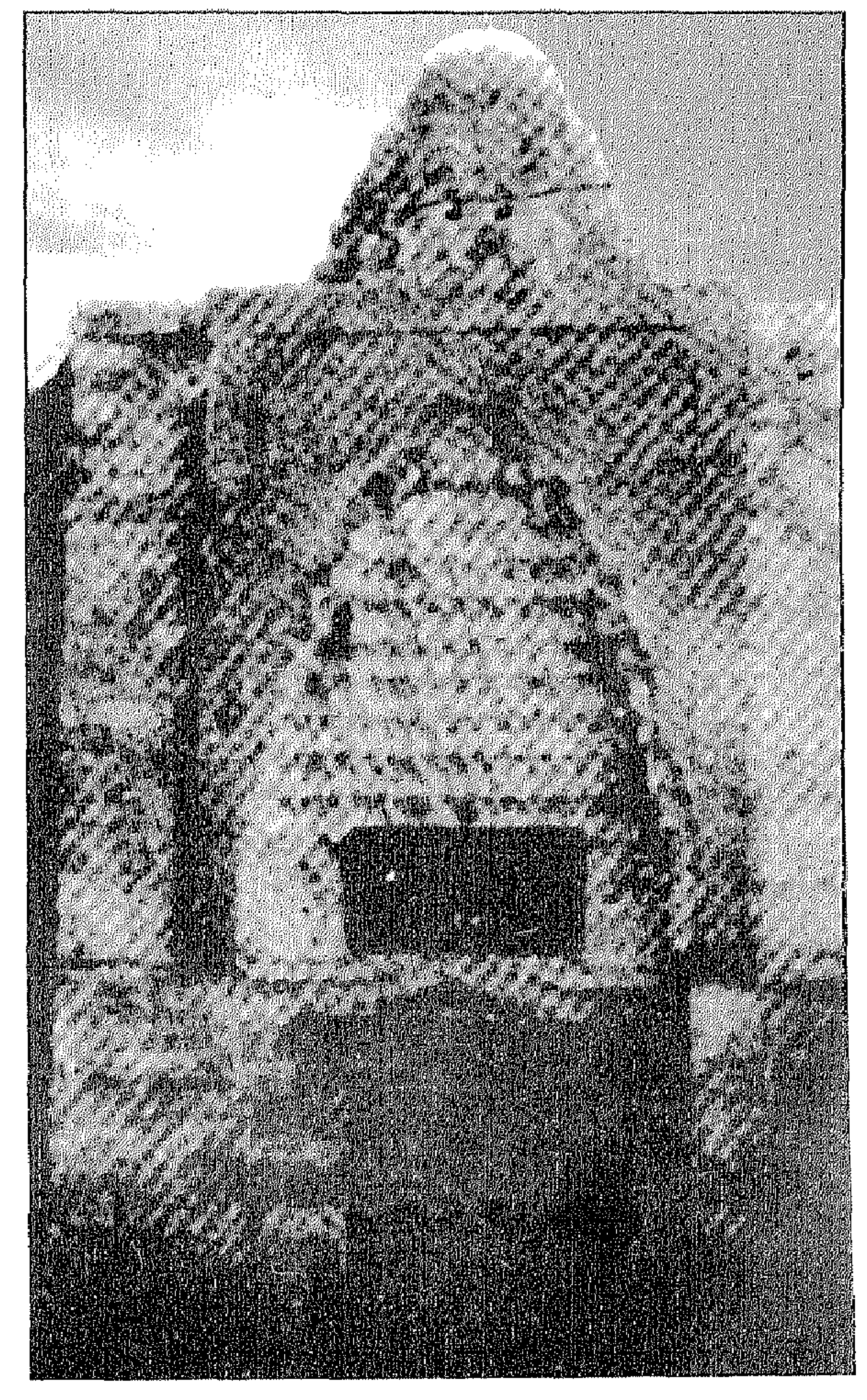


قبة مسجد نور الدين محمود بدمشق



مسقط أفقى للمدرسة النورية

مسقط أفقى لمدرسة نور الدين محمود بدمشق



وجه البيمارستان النورى بدمشق ويرى أعلاه قبة المدخل



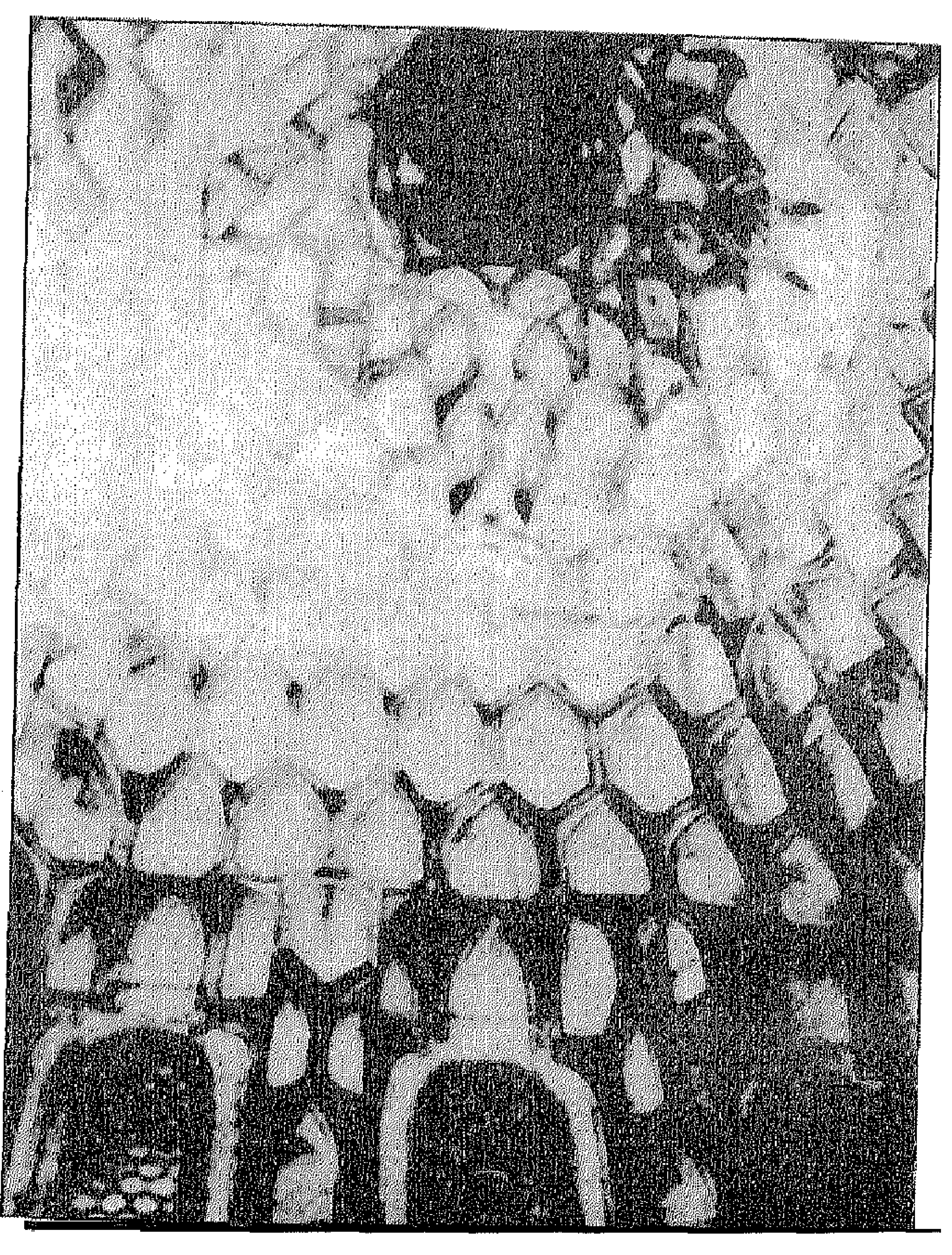
وشرع نور الدين فى بناء مدرسة أخرى للشافعية بدمشق عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، ووضع محرابها، ولكن أدركه الأجل قبل أن يدرك عمارتها ويستكمل بنائها كذلك لم يهمل القدر نور الدين محمود لعمارة مدرسة فى بغداد على حافة نهر دجلة، وكان قد عزم على أن يوقف عليها درب هارون وصريفين، وكانتا قديما لأبيه عماد الدين زنكى، وكتب له الخليفة العباسى توقيعا بإقطاعهما بعد أن خطب باسمه على منابر مصر عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م.

حرص نور الدين أيضا على ترميم المدارس وإصلاح ما تهدم منها حتى سنة وفاته فيذكر العماد الأصفهانى أن نور الدين قام بزيارة المدرسة التى أتولاها فى رمضان ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م فلما رأى حال المدرسة وقد تشعث من أيام الزلزلة قال نور الدين: «نعيده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة».

اهتم نور الدين أيضا ببناء مكاتب لتعليم الأيتام فى كثير من البلاد، وأجرى على معلميهم الجرايات الوافرة، كما وقف على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة ».

وبلغ من اهتمام نور الدين بعمارة المدارس وترميمها أن قيل « أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفى زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس وترتيب أمورها ».

كان نور الدين يهدف من وراء بناء المدارس «نشر العلم، ودحض البدع.. وإظهار شعائر الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين»؛ لذلك اهتمت مدارس نور الدين محمود بأصول الدين وعلومه وخاصة القرآن والحديث ولهذا الغرض بنى نور الدين دارا للحديث بدمشق، ويعد بذلك أول من بنى دارا للحديث، وكانت أول جامعة من


قبة جامع نور الدين محمود من الداخل

نوعها فى التاريخ الإسلامى، وأوقف عليها وعلى المشتغلين بها بعلم الحديث أوقافا كثيرة منها دور كثيرة وحمام قايماز وفرن كان هناك. وأسند نور الدين أعمال التدريس بدار الحديث إلى ابن عساكر إذ يذكر النعيمى «وتولى مشيختها الحافظ الكبير، ثقة الدين أبو القاسم على بن عبد الله بن عساكر الدمشقى الشافعى (٤٩٩هـ - ٥٧١هـ) أمام أهل الحديث فى زمانه، وحامل لوائهم، وقد صنف التصانيف الجليلة ومنها تاريخ دمشق فى ثمانين مجلدا، وكان كثير العلم... جمع بين معرفة المتن والإسناد».

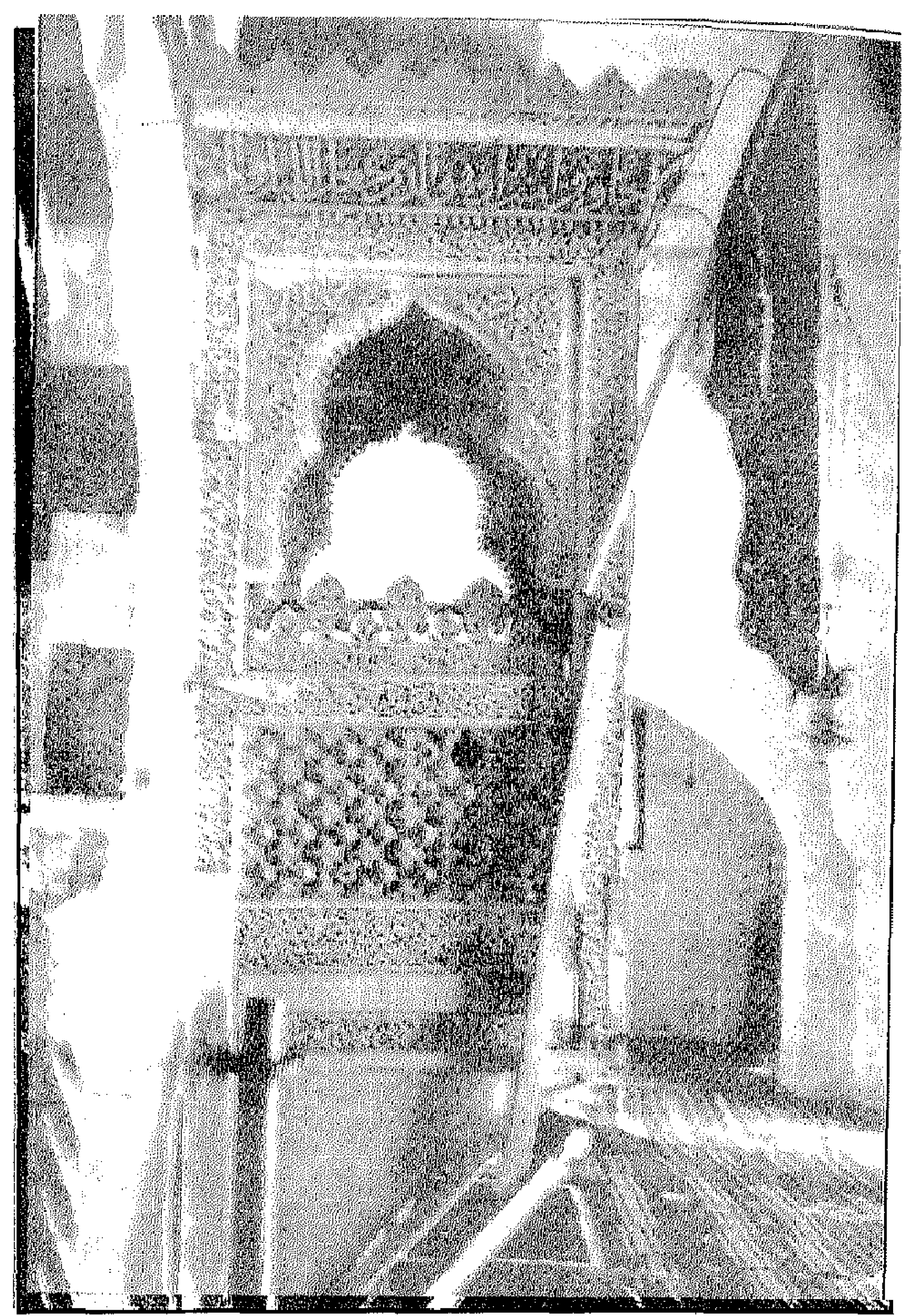
عنى نور الدين عناية كبيرة، بعمارة المساجد وترميمها فى جميع البلاد ففى عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م بنى بمدينة حماه جامعا على نهر العاصى، وجعل فيه مئذنة مربعة الشكل، ومنبرا خشبيا، يعتبر من روائع الفن الإسلامى فى العالم، كما أمر ببناء الجامع النورى بالموصل فى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، وفوض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملأ، وقد اختاره لهذا الغرض لأنه كان على يقين من أنه لا يظلم، فإذا ظلم فإن الإثم عليه لا على نور الدين.

وقد أشرف نور الدين على تأسيس هذا الجامع بنفسه، وجعل له خطيبا، ودرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبى بكر البرقانى، تلميذ محمد بن يحيى، تلميذ الغزالى، وكتب له

مئذنة مسجد حماة

منشورا بذلك، وقد أوقف نور الدين على هذا الجامع قرية من قرى الموصل، وذلك كله بإشارة من الشيخ الصالح العابد عمر الملأ. وأنشأ نور الدين أيضا المسجد الكبير الجامع فى قلعة دمشق، وفيه منارة وبركة وعلى باب سقاية (ميضأة) وجعل له إماما ومؤذنا ووقفا.

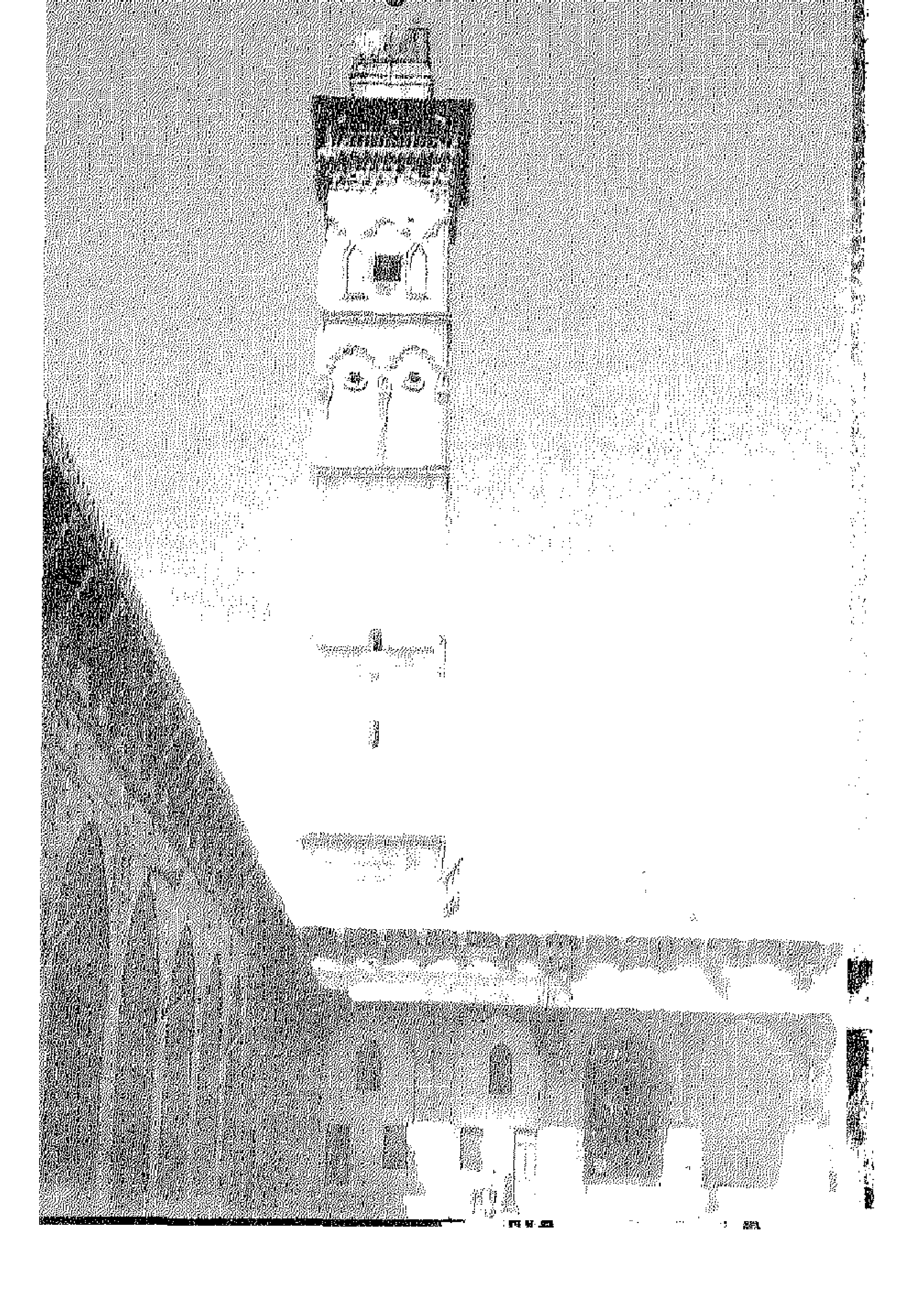
حرص نور الدين على تجديد عمارة ما تهدم من الجوامع إما بزلزلة أو بغيرها، فجدد عمارة جامع حلب وزخرفه، وكان كثير الصلاة والتعبد فيه،



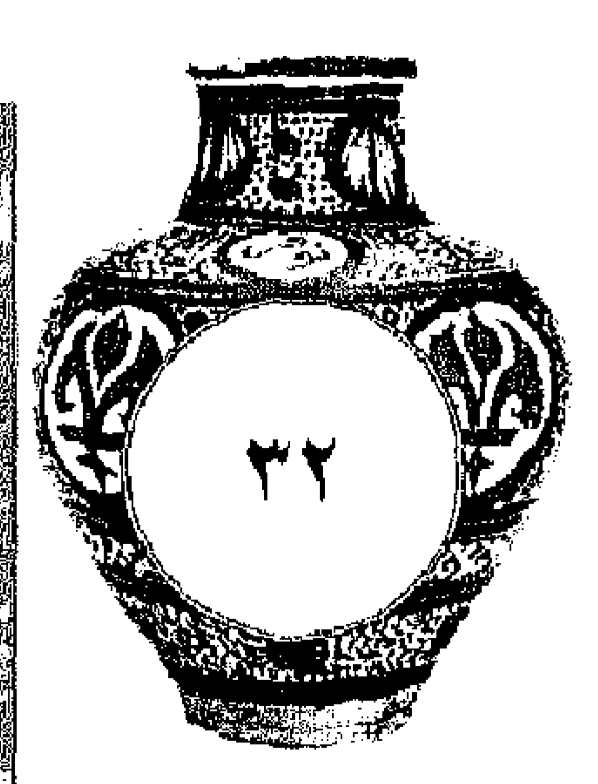
منبر مسجد نور الدين محمود - حماة

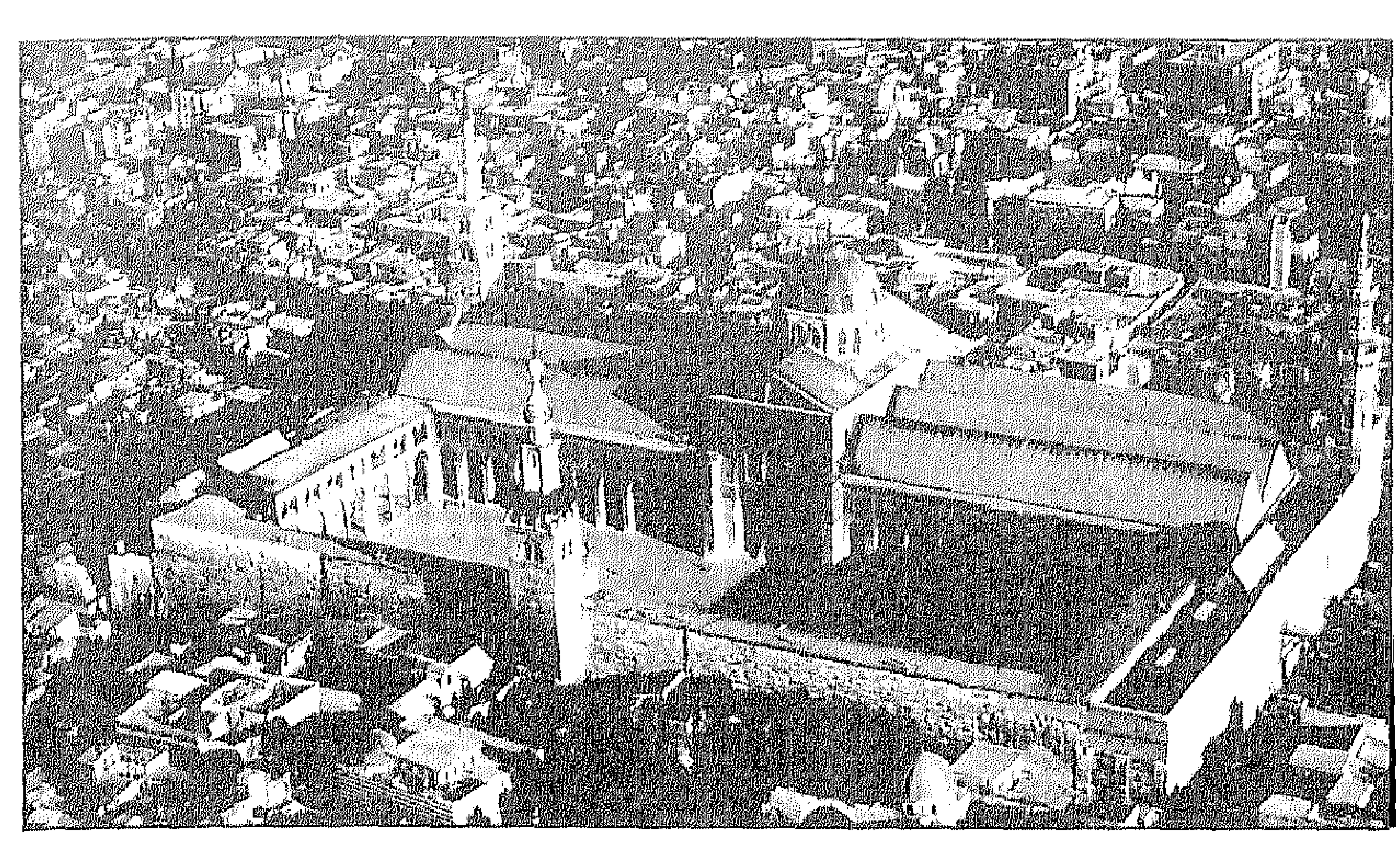
وبنى فيه صهريجا مرصعا يملأ فى كل سنة، ووقف عليه وقفا حسنا بظاهر حلب، ورتب فيه مدرسا يدرس الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه. كذلك أوقف نور الدين وقفا على مسجد شعيب بن أبى الحسن بن أحمد الأندلسى داخل حلب - وكان من الفقهاء والزهاد، ورتب فيه نور الدين شعيب هذا مدرسا على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه.

وأمر نور الدين أيضا بإحصاء ما فى محال دمشق من مساجد هجرت وخربت، فأناف على مائة



مسجد حلب





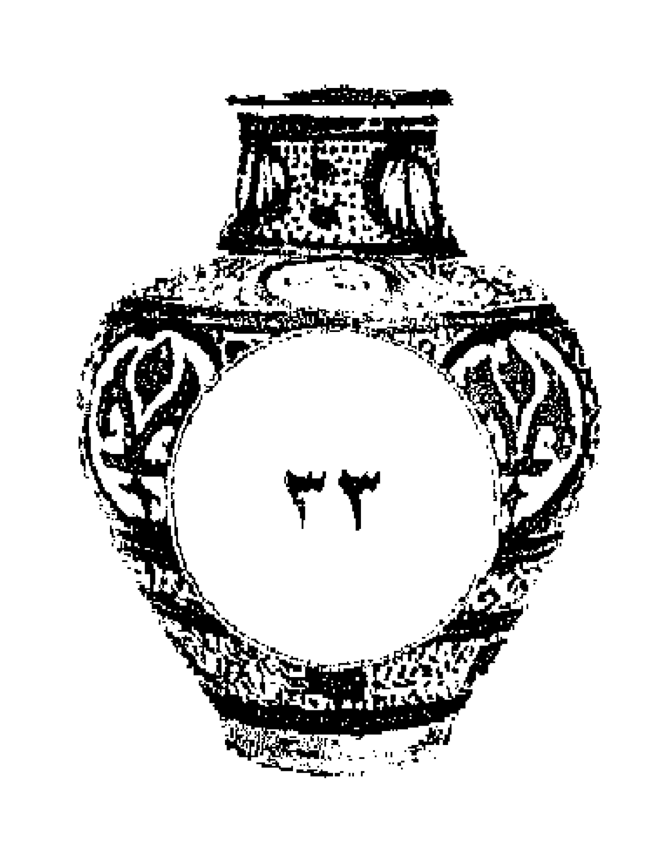
المسجد الأموى بدمشق

مسجد، وموضع يتبرك به ومشهـد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له وقوفا. وعهد نور الدين إلى القاضى كمـال محمد الشهرزورى بإصـلاح جامع دمشق، فأصلحه، وفتح المشـاهد الأربعة، وقد كانت حواصل الجامع بها منذ أن احترقت فى سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م، وأضاف إلى أوقافه المعلومة الأوقاف التى لا يعـرف واقفوها، ولا يعرف شـروطهم فيها، وجـعلها قلما واحدا، وسـمى مال المصالح، ورتب عليه لذوى الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك.

اهتم نور الدين بعـمل ساعـات عند باب الجامع بدمـشق، وقد صنعـها له فخـر الدين بن الساعاتى، وكان أوحدا فى معرفة الساعات وعلم النجوم، إذ يذكر ابن أبى أصيبعة : « وهو الذى عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق، صنعها فى أيام الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، وكان له منه الإنعام الكثير، والجامكية والجراية لملازمة الساعات».

وعمر نور الدين أيضا جـامع داريا (من قرى دمشق بالغوطة) فى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م، وعمر مشهد وضريح أبى سليمان الدارانى بها.

لم تقتـصر جهود نور الدين على بنـاء المساجد وعمـارتها وإصلاح ما تهـدم منها، ووقف الأوقاف على من يعملون بها، ويقرأون فيها الـقرآن، بل أوقف أوقافا أخرى على تطييب المساجد ومنها جـامع دمشق، وجامع قلـعتها، ومـدرسة الحنفـية ومسـجد ابن عطية داخل باب الجـابية، ومسجـد سوق الرماحين، والمسجـد المعلق بسوق الصاغة، ومـسجد دار البطيخ المعلق، ومـسجد العباس بسوق الأحد، ومـسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود، وغيرها من مـساجد دمشق، ويذكر أبو شامة: « ووقف المولى نور الدين بسـتان الميدان. . . بعد عمارته وإصلاح مـا يحتاج إليه على تطييب المساجد. . يبتاع بذلك عـود وطيب، ويفرق على هذه الأماكن، النصف للجامع بدمشق،



والنصف الثانى ينقسم على أحد عشر جزء، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية، لكل مسجد جزء واحد». وتطييب هذه الأماكن يكون فى الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالى شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع، وقت عقد الجمعة فى الجوامع، وليالى الجمعة والخميس والإثنين.

عنى نور الدين عناية فائقة بالصوفية، وبنى لهم الخانقاوات (أى بيوت الصوفية) ومنها خانقاه القصر بحلب، وتقع تحت القلعة، وكان مبدأ عمارتها فى سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وخانقاة القديم، أنشأها نور الدين أيضا وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم الطرسوسى.

وصف الرحالة ابن جبير خانقاة القصر فذكر : « ومن أعظم ما شاهدناه لهم (أى الصوفية) موضع يعرف (بالقصر) وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء، فى أعلاه مساكن، لم ير أجمل إشراقا منها، وهو من البلد بنصف ميل، وله بستان عظيم يتصل به، وكان متنزها لأحد ملوك الأتراك ».

أما عن سبب بناء هذه الخانقاة فى هذا القصر فيذكر ابن جبير « أن صاحب القصر كان فى إحدى الليالى على راحة، فاجتاز (أى مر) به قوم من الصوفية فهريق عليهم من النبيذ، الذى كانوا يشربونه فى ذلك القصر، فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم».

حرص نور الدين على تعيين خيرة الفقهاء فى مشيخة الصوفية، فعين نور الدين الشيخ سعيد بن سهل أبا المظفر الفلكى النيسابورى، شيخا للخانقاة السميساطية بدمشق، فأقام بها أبو المظفر مدة، لا يتناول من وقفها شيئا، ويجمع نصيبه عنده، إلى أن صار بيده من جملة حسنة، فعمر بها الإيوان الشمالى والساقية، وظل بها حتى توفى فى عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م. كذلك عين نور الدين محمود الشيخ عماد الدين أبا الفتح بن حمويه (٥١٣- ٥٧٧هـ) وكان «كبير الشأن لم يكن له فى علم الطريقة والحقيقة مساو» عينه على مشيخة الصوفية بالشام فى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، وفوض إليه نظر الخانقاة بدمشق وغيرها، وأمر العماد الأصفهانى بكتابة منشور له بذلك. وكان لهذا الشيخ مكانة كبيرة عند نور الدين فقد أهداه نور الدين عمامة بأعمدة ذهبية، كان صلاح الدين قد أرسلها إليه، فأثر بها شيخ الشيوخ عماد الدين بن حمويه، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها.

لم يكتف نور الدين ببناء الخانقاوات للصوفية، وتعيين خيرة الفقهاء لمشيختها، بل أوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وأدر على الصوفية الإدرارات الصالحة، وكان يحضر مشايخ الصوفية عنده



ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم، فإذا أقبل أحدهم إليه، يقوم له يعتنقه ويجلس معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وذلك تعظيما وتوقيرا واحتراما.

وبالجملة كان أهل الدين عنده فى أعلى المنازل وأعظمها لذلك حسدهم أمراء نور الدين فيذكر أبو شامة أن أحد أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابورى، ونال منه يوما عند نور الدين، غير أن نور الدين لم يصدقه، وقال له : « إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهى العلم والدين، وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليس لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ». وبذلك كف نور الدين الأمراء وأهل الحكم عن الفقهاء وأهل العلم.

كان نور الدين سخيا مع الفقهاء والعلماء والصوفية، وكان إذا أعطى أحدهم شيئا يقول : «إن هؤلاء لهم فى بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا » وقد حاول البعض يوما إقناع نور الدين بتحويل أوقاف الفقهاء والصوفية والعلماء لصالح الأجناد، فقال له بعض أصحاب السوء : « إن لك فى البلاد إدرارات كثيرة، ووقوفا عظيمة للفقهاء والصوفية والقراء وغيرهم فلو

قلعة حلب فوق التلال



استعنت بهـا لكان أمثل، فغضب من هذا وقـال : « والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما تـرزقون، وتنصرون بضـعفائكم، فـكيف أقطع صلات (أى أوقاف) قوم يقاتلون عنى، وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسـهام قد تخطئ وتصـيب، ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم، فكيف أعطيه لغيرهم».

واظب نور الدين على عقـد مجالس العلم والوعـظ فى القلعة، وكان يجـمع عنده العلماء للبحث والـنظر، فقصـدوه من البلاد الشـاسعة من خـراسان وغـيرها ومن أشهـرهم قطب الدين النيسابورى الفـقيه الشافعى - الـسابق الذكر - وكان قد اسـتقدمه من خراسـان، وبالغ فى إكرامه والإحسان إليه، وكان نور الدين شغوفا ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه، على حد تعبير أبى شامة. كـذلك وفد إليه من بغداد الشيخ أبو النـجيب الأكبر، فبسـط له نور الدين فى كل أسبوع المنبر، وشاقه وعظه وراقه لفظه، وكذلك وفد إليه من أصفهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن ونال منه الحظوة.

خلاصة القول أن العلماء والفقهاء والصوفية احتلوا مكانة متميزة فى دولة نور الدين، وكانوا موضع احترام وتقدير وتوقير.

أما عن موقف نور الدين من الشعر والشعراء، فـقيل أنه كان قليل الابتهاج بالشعر والمدح، فيـروى يحيى الوهرانى فى مقـامة له، وكان قد سـئل فى بغداد عن نور الدين فقـال : «هو سهم للدولة سديد، وركن للخـلافة شديد، وأمـير زاهد، وملك مجـاهد تساعده الأفلاك، وتقـصده الجيوش والأملاك غير أنه عرف بالمرعى لابن السبيل، وبالمجل الجديب للشاعر الأديب، فما يرزى ولا يعزى ولا لشاعر عنده من نعـمة تجزى». ويبدو أن الوهرانى كان مبالغا فى ذلـك، فقد امتدح الشعراء نور الدين ومنهم: ابن منير والقيسرانى، وذكـروا فى مديحهم له كرمه وسخاءه وجوده مما يرد قول الوهرانى.

الحقيـقة أن نور الدين لم يكن يكره الشعر لذاتـه وكأسلوب فنى فى التعبـير، بل كان يكره تزايد الشعراء وتملـقهم الزائف للسلطة على حساب العـدل، وكان نور الدين يتعشق الشـعر الملتزم ويطلب من شعـراء عصره أن يسمـعوه شيئـا منه فى المواقف والمناسبات المختلـفة، فيذكر الـعماد الكاتب أن نور الدين طلب منه أن يكتب له شعرا فى معنى الجهاد، فقال عدة أبيات منها :

أقسمت سوى الجهاد ما لى أرب   والراحة فى سواه عندى تعب

إلا بالجد لا ينـــــال الطلب   والعيش بلا جد جهـــاد لعب



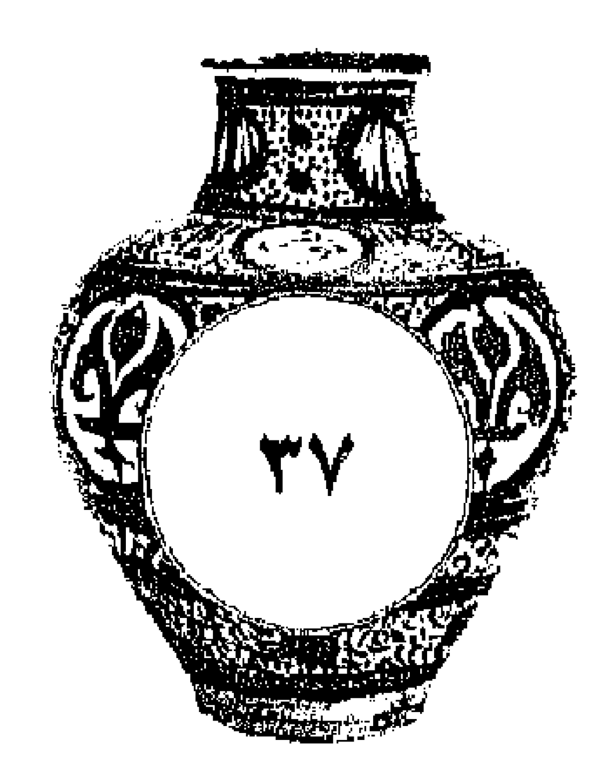
وليس أدل على حب نور الدين للشعر من تألق العـديد من الشعراء فى عصره، فقـد شهد عصره فحـول الشعر ومن أشهرهم الأديب الشاعـر أبو عبد الله محـمد بن نصـر بن صغـير القيـسرانى، وقـد ولد فى عكا سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، ونشأ بقيسارية لذلك نسب إليهـا، ثم انتقل منها إلى حلب فدمشق، وكـان أديبا فـاضلا، وشـاعرا مـسـترسلا، وله اطلاع واسع فى علم النجـوم والتاريـخ، وتوفى فى عام ٥٧٨هـ/ ١١٥٢م. أمـا الأديب الشاعر أبـو الحسين أحمـد بن منير الطرابلسى فقـد ولد بناحية طرابلس فى سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، وحـفظ القرآن، وقـرأ الأدب واللغة، وقـدم إلى دمـشق وأقام بهـا، ثم عاد إلى حـلب ومات بهـا سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م. وكان لكل من القيسرانى والطرابلسى فى مدح نور الدين قصائد حسنة أوردها أبو شامة، وهما شاعرا الشام - كمـا يذكر أبو شامة - وقد شبهما العمـاد الكاتب فى كتابه الخريدة بالفرزدق وجرير، كما أن العماد الأصفهانى نفسه يعد مـن أشهر كتاب الشعر فى عصر نور الدين محمود، وقد عبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظما ونثرا.

رابعا : المجتمع والرعاية الصحية :

عرف مجـتمع الدولة النورية شأنه شأن مـجتمعـات ذلك العصر العديد من الطبـقات منها الطبقة العليـا والوسطى والدنيا، وقد أبدى نور الدين اهتماما بهـذه الطبقات جميعا إذ كـان يعتقد أنها عماد المجتمع، وليس أدل على ذلك من أنه حينما دخل دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٤٥م «أحضر فى ذلك اليوم أماثل الرعـية من القضاة والفقـهاء والتجار، وخاطبـهم بما زاد فى إيناسهم وسرور نفوسهم، وحسن النظر لهـم بما يعود بصلاح أحوالهم، وتحقيق آمالهم، فـأكثروا الدعاء له والثناء عليه » كما يروى ابن القلانسى. ويتضح من ذلك أن نور الدين، لم يقدم على عمل شىء إلا بعد الاجتـماع بأهل البلد من قضـاة وفقهـاء وتجار أى ممثلى الطبقـتين العليا والوسطى، كمـا أنه كان حريصا على أن يبعث الطمأنينة فى نفوسهم.

لم يقتصـر اهتمام نور الدين على الطبقة العليـا والوسطى فحسب، بل زاد اهتمامـه بطبقة العامة والفـقراء بصفة خاصـة، إذ كان نور الدين يحب الفقراء، ويبـر المساكين، وكان لا يرى إلا مجـالسا فـقيرا، وله دار بـرسم الوراد من الفقراء المـتجردين، كـما كـان يخرج لهم الكثـير من الصدقـات، فيذكر الأصـفهانى فى حـوادث سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م « وحسبنا مـا تصدق به على الفقراء فى تلك السنة فـقد زاد على ثلاثين ألف دينار من الذهب الأحمر». وكثيـرا ما كان يخرج إليه الفقراء فى مدينة دمشق يلتمسون عطاءه فلم يكن يخيب أحدا منهم.

وحظى الفلاحون بجانب من اهتـمام نور الدين، فقد سعى لحمايتهم وحـماية أراضيهم من كل صنوف الأذى والتخـريب والعدوان التى قـد يتعرضـون لها نتـيجة الحـرب المستمـرة، وتحرك الجيوش الدائم ضد الصليـبيين فكان يأمر جنده بألا يفسدوا المزارع والضـياع والقرى، وألا يأخذوا



شيئا من مزارع بغير حق، كما أعلن نفسه حاميا للفلاحين. كذلك سعى نور الدين لتخفيف عبء الضرائب عن كاهلهم، فأسقط حشدا كبيرا منها، فكان ذلك حافزا لهم دفعهم إلى مزيد من العمل والإنتاج، وهم مطمئنون إلى أن حصيلة كدحهم وكدهم سوف تعود إليهم فى نهاية الأمر.

وأعان نور الدين الفلاحين على استغلال أراضيهم أحسن استغلال، واهتم من أجل ذلك بمشروعات الرى من شق للترع، وحفر للقنوات وإقامة للجسور، وتعبيد للطرق وغير ذلك ونتج عن ذلك كما يذكر ابن العديم « وانعمر بلد حلب فى زمان نور الدين. . . حتى أنه لم تبق مزرعة فى جبل، ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل ».

اهتم نور الدين أيضا بالغرباء وخاصة المغاربة، وأوقف عليهم الأوقاف التى تكفل لهم حياة كريمة فيذكر ابن جبير :« من مناقب نور الدين أنه عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك بدمشق، أوقافا كثيرة منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض فضاء، وحمام ودكانان بالعطارين، وكان هذا الوقف يغل - إذا كان النظر فيه جيدا- خمسمائة دينار فى العام ».

كان نور الدين يشارك شعبه فى الاحتفال بمواسم المسلمين وأعيادهم، ويفعل فى كل موسم ما ينبغى فيه، فيخرج فى موكب يحمل السنجق (رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح) على رأسه وحوله الأجناد على ظهور خيولهم، وسيوفهم مشدودة إلى أوساطهم. أما فى الأعياد فكان يركب على الرسم المعتاد، ويخرج إلى الميدان الأخضر شمال دمشق لطعن الحلق ورمى القبق (يعنى فى اللغة نبات القرعة العسلية، وفى الاصطلاح الهدف الذى يستخدم فى اللعبة المعروفة باسمه أى القبق)، والأكابر تحت ركابه وقوف، والعساكر للمثول ببابه صفوف، وكان يضرب خيمته فى الميدان الأخضر، ويأمر بوضع المنبر، ويخطب له القاضى شمس الدين بن المقدم، قاضى العسكر، خطبة العيد، ثم يعود بعد ذلك إلى القلعة، ويمد السماط (المائدة) للعامة، وسماطا آخر للأمراء والخاصة.

وكانت هناك أسمطة تقام فى مناسبات أخرى غير الأعياد، فقد حدث فى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م أن صنع الملك العادل نور الدين- لأخيه قطب الدين ولعسكره- ولمن ورد معه من المقدمين والولاة وأصحابهم الواردين لجهاد الروم والفرنج - سماطا عظيما هائلا، تناهى فيه بالاستكثار من ذبح الخيول والأبقار والأغنام، وما يحتاج إليه فى ذلك، مما لا يشاهد مثله، ولا شبه له كما يروى ابن القلانسى.

حرص نور الدين على تقديم العديد من الخدمات لأهل بلاده ومنها توفير الرعاية الصحية والطبية لهم، وبناء المؤسسات الخاصة بها ؛ لذلك وجه عنايته نحو تشييد العديد من البيمارستانات (أى المستشفيات) فى البلاد التى كان يحكمها، ومن أعظم هذه البيمارستانات، البيمارستان



النورى الكبير بدمشق، والبيمارستان النورى بحلب، والبيمارستان النورى بحماه.

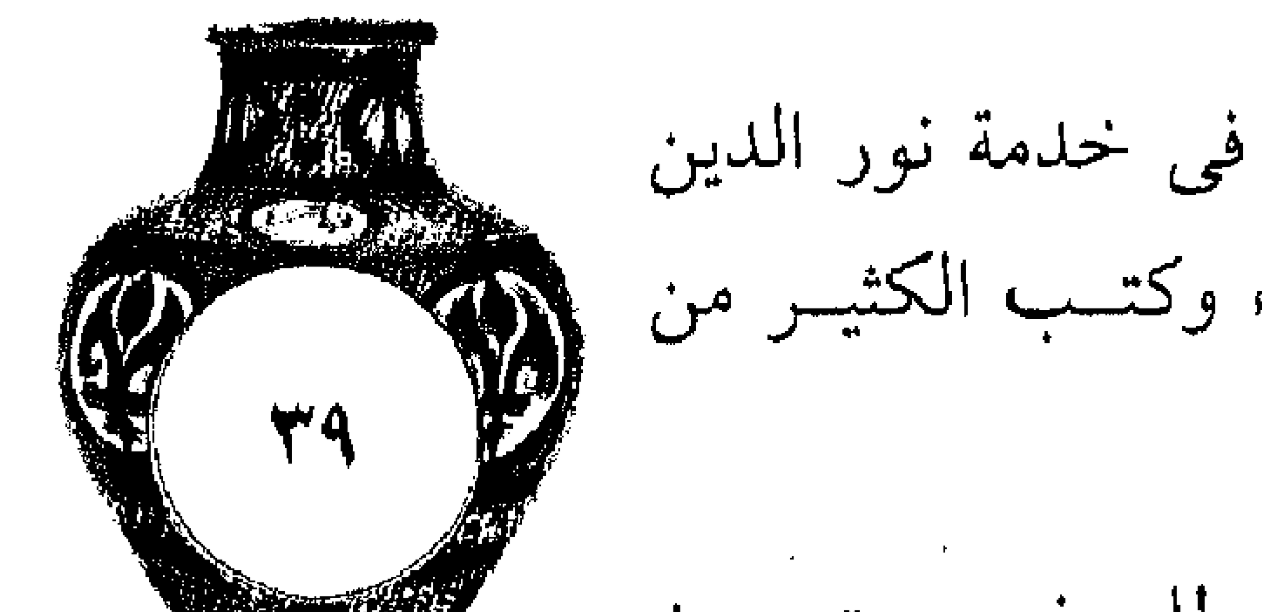
أما عن البيمارستان النورى بدمشق فقد شرع نور الدين فى بنائه سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م بمال أخذه فداء من أحد كبار ملوك الفرنج، كان قد وقع أسيرا فى يديه، فأطلقه نور الدين وأخذ الفداء وكان مالا كثيرا بنى منه هذا البيمارستان. وتصف المصادر هذا البيمارستان بأنه « كان عظيما كثير الخراج، لم يبن فى الشام قبله ولا بعده، وليس له فى البلاد نظير، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم توجد بعض الأدوية التى يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع الأغنياء، ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه (أى الدواء).

وكان نور الدين من رواد هذا البيمارستان، وقد شرب من شرابه، كذلك يذكر ابن الأثير : « أن أولاد صلاح الدين وأهله كانوا يأخذون الأدوية من هذا البيمارستان ويعالجون فيه مجانا». وهذا يعنى أن نور الدين لم يجعل هذا البيمارستان مقصورا على الفقراء والمساكين فحسب بل على كافة المسلمين الغنى منهم والفقر.

وقد شجع الأغنياء على الذهاب إلى هذا البيمارستان أن معاملة الأطباء فيه كانت أفضل من معاملة الأطباء الخصوصيين فى ذلك الحين، ويظهر ذلك من خلال حديث أحد الأغنياء عندما توجه لأحد الأطباء المغاربة، فإن هذا الطبيب قد عامله معاملة جافة، وحاول أن يبحث عن طبيب آخر، ولكنه تلقى النصح بالتوجه إلى بيمارستان دمشق، وهناك قابله الطبيب المختص منبسط الوجه، وسأله عن حاله، وكتب له نسخة (أى روشته فى مصطلحنا الحديث)،وخرج من عنده راضيا.

ولما أنشأ نور الدين محمود البيمارستان بدمشق جعل أمر الطب فيه إلى أبى المجد بن أبى الحكم عبيد الله بن عبد الله الباهلى، وأطلق له جامكية (أى راتب) وجراية، وكان هذا الطبيب يتردد عليه ويعالج المرضى فيه، ويدور على المرضى بالبيمارستان ويتفقد أحوالهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى. ولم يقتصر عمل الطبيب أبى المجد على مداوة المرضى بالبيمارستان وعلاجهم بل كان يقوم بتدريس الطب أيضا بالبيمارستان، فكان يجلس فى الإيوان الكبير - بعد فراغه من تفقد أحوال المرضى - ويحضر كتب الاشتغال بالطب، ويأتى إليه جماعة من الأطباء والمشتغلين ويقعدون بين يديه، ثم تجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم فى اشتغال ومباحثة، ونظر فى الكتب الطبية - التى أوقفها نور الدين على هذا البيمارستان - مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره بدمشق كما يروى ابن أبى أصيبعة والنعيمى.

ولم يكن الطبيب أبو المجد هو الطبيب الوحيد الذى عمل فى خدمة نور الدين محمود بالبيمارستان النورى بدمشق بل هناك آخرون منهم الشيخ العالم الأجل أبو الفضل بن أبى الوقار، وكان متميزا فى صناعة الطب علمها وعملها، وكان نور الدين يعتمد عليه فى صناعة الطب، وكان لا يفارقه فى السفر والحضر. كذلك الشيخ العالم الإمام مهذب الدين بن النقاش، الذى

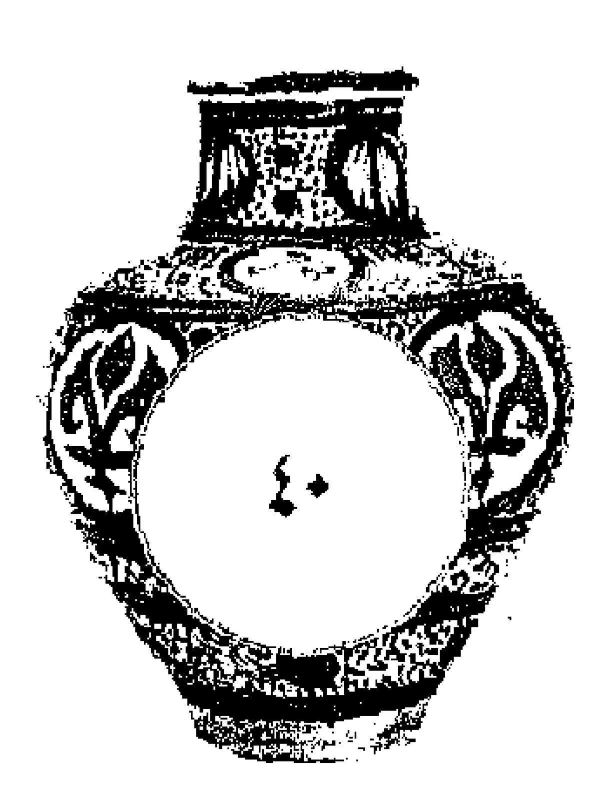


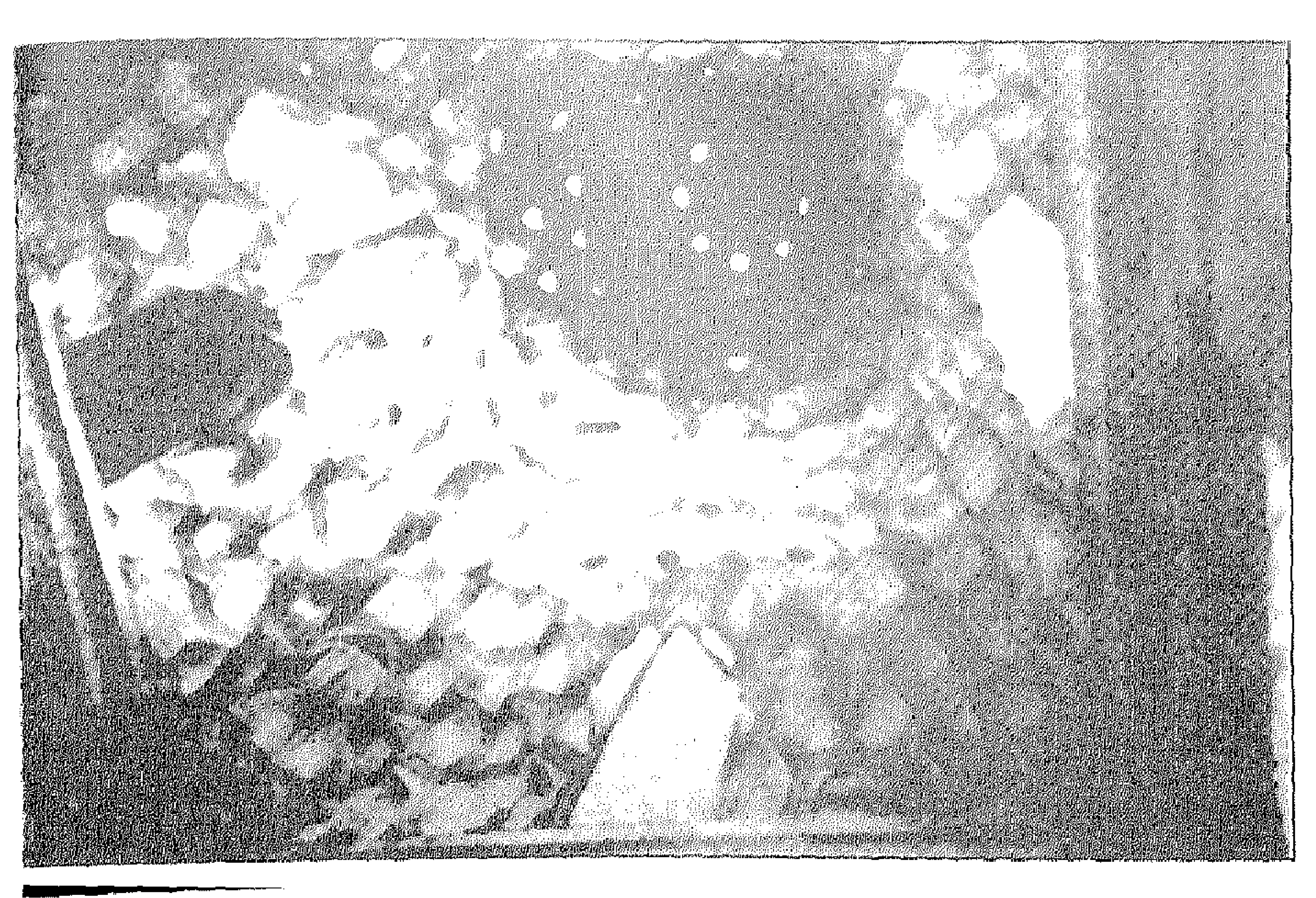
خدم بالبيمارستان النورى وظل به سنين، ولم يقتصر عمله فى خدمة نور الدين على مجال الطب، بل كان يعانى أيضا كتابة الإنشاء وكتب الكثير من المراسلات والكتب لنور الدين، وكان مكينا عنده.

ظل البيمارستان النورى بدمشق يؤدى دوره وخدماته للمرضى حتى بعد وفاة نور الدين محمود ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م فى العصور التالية، فقد زار الرحالة ابن جبير هذا البيمارستان عندما دخل دمشق فى عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م وذكر « وبهذه البلدة (دمشق) مارستانان قديم وحديث، والحديث (يقصد بيمارستان نور الدين) أحفلهما وأكبرهما، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، وله قومة بأيديهم الأزمة (السجلات) المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه فى كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم ».

كذلك يذكر المؤرخ ابن كثير « أن هذا البيمارستان منذ أن عمر حتى زماننا (أى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) لم تخمد له نار» وهذا يعنى أن البيمارستان النورى ظل يؤدى دوره لسنوات طوال.

قلعة حلب





قبة مدرسة نور الدين محمود

وأنشأ نور الدين محمود بيمارستانا آخر بحلب، حدد ابن الشحنة موقعه فذكر: « أن البيمارستان النورى الذى بناه الملك العادل نور الدين محمود داخل باب أنطاكية بالقرب من سوق الهواء فى محلة الجلوم الكبرى ».

أما عن اختيار المكان المناسب لبناء هذا البيمارستان والذى يجب أن تتوافر فيه الشروط الصحية المناسبة فيذكر ابن الشحنة كذلك أن الملك العادل نور الدين «تقدم إلى الأطباء، وطلب منهم أن يختاروا من حلب أصح بقعة صحيحة الهواء لبناء البيمارستان بها، فذبحوا خروفا، وقطعوه أربعة أرباع، وعلقوها بأرباع المدينة ليلا، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذى كان فى هذا القطر، فبنوا البيمارستان فيه».

أوقف نور الدين على هذا البيمارستان العديد من الأوقاف، وقد أحصاها ابن الشحنة جميعا ومنها على سبيل المثال لا الحصر قرية معراثا، ونصف مزرعة وادى العسل من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من قرية كفر نايا، وثلث مزرعة الخالدى، وطواحين ودكاكين وقرى وغير ذلك.

وشيد نو الدين أيضا بيمارستانا ثالثا بمدينة حماه، كان بيمارستانا لعلاج المرضى ومدرسة للطب فيها، ويقع إلى جوار جامع نور الدين بالمدينة، ويذكر ابن جبير الذى زار المدينة ودخلها عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م « ولها مارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير ».

جملة القول أن جهود نور الدين محمود فى مجال الصحة العامة تظهر مدى حرصه على الإكثار من المؤسسات الطبية التى تعالج المرضى وتوفر لهم الأدوية والعلاجات المختلفة، هذا إلى جانب كونها مدارس لتدريس الطب وتعليمه، مما يدل على إدراك نور الدين لأهمية توافر الوعى الصحى والطبى فى البلاد التى حكمها.



خامسا : العناية بالجند وبناء الأسوار والقلاع :

وجه نور الدين جل عنايتـه للشئون العسكرية فاهـتم بأمر الجند وحرص على بناء الأسوار والـقلاع خاصـة وأن الدولة النورية كانت فى جـهاد دائم مع الصليبين فى بلاد الشام.

سـار نور الدين محـمـود على سنة أبيـه عمـاد الدين زنكى وأسـاتذته السلاجقة فى منح الإقطاعات الحربية لأمرائه وقادته، فقد أقطع نور الدين محمود نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيـركوه وابنه صلاح الدين إقطاعات كبيرة، فحـصل نجم الدين على إقطاع كبير بدمشق وغيرها، وحصل شيركوه على إقطاع كبيـر أيضا فى حمص والرحبة وأعمالها، أما صلاح الدين فقـد حصل على حلب وكفـر طاب، وذلك نظير ما يقـدمونه من خدمـات عسكرية للدولة النورية. كما مـنح نور الدين الأمير حسان المنبـجى إقطاع منبج، وأقطع كذلك الأميـر فخر الدين الزعفرانى الرها وحماه وكفر طاب وحمص وسلميـة وبعرين وغيرها من بلاد الجزيرة الفراتية، كما أقطع نور الدين رضيعه مجد الدين بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر.

وكان نور الدين يكتب لكل مقطع منشورا بإقطاعه يبين فـيه جهات الإقطاع وحدوده، وعدد الفرسان الذى يتقدم به «وقت المهمات الشريفة» أى حينما تدعو الحاجة إلى الجهاد والقتال، وعندئذ كان يركب كل أمير بعدته وهيئته فى الحـرب، ويذكر الأصفهانى أنه كان يتم عرض هؤلاء الجنود، ويقوم بهذه المهمة الأمير الحاجب ضياء الدين بـكريسان، وكان هذا الأمير أكبر حجاب أسد الدين شيـركوه - القائد العـام للقوات النورية. كذلك شـغل أبو سالم بن عبد الـرحمن الحلبى منصب متولى كتابة الجيش وعرض الأجناد فى ديوان الملك العادل نور الدين محمود.

واهتم نور الدين بأن يثبت أسـماء أجناد كل أميـر فى ديوانه ودوابهم وسلاحهم خـوفا من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله ذلك على أن يقـصر فى بعض ما هو مقرر عليه من العدد، أى كان يخشى أن ينتقـص بعض الأمراء ما هو مقرر عليه من العدد والـعدة لذلك كان يقول : « نحن كل وقت فى النفير، فـإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملـى العدد والعدة دخل الوهن على الإسلام ».

اهتم نور الدين أيضا بأمر الأجناد وحرص على إقطاعهم الإقـطاعات كما كان أحسن الناس معرفة بأمورهم فـيذكر ابن واصل: « من آرائه الحسنة ما كان يعتمـده فى أمر أجناده، فإنه كان إذا توفى أحد الأجناد وخلف ولدا ذكـرا أقر الإقطاع عليه فـإذا كان الولد كبـيرا تولى حقـوق إقطاعه وواجباته بنفسه، وإن كان صغيرا رتب الملك العادل معه رجلا عاملا يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر، فأصبحت الإقطاعات وكأنها موارد ثابتة، واعتبرها القواد والجنود أملاكا؛ لذلك كان الأجناد



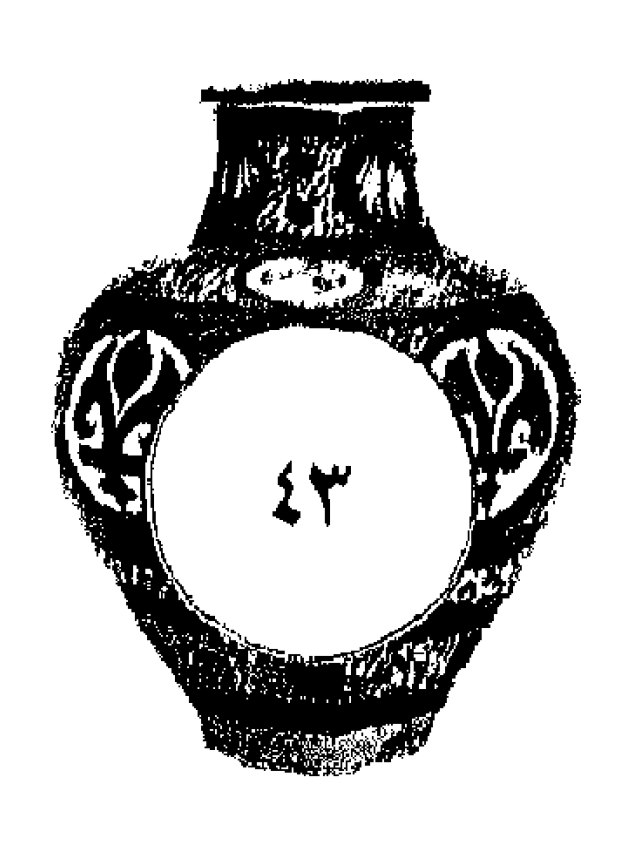
يقولـون :« هذه أملاكنا يرثهـا الولد عن الوالد، فنحن نقـاتل عليهـا». وكان لذلك أكبـر الأثر فى نفس الجنود، ومن أعظم الأسبـاب لصبـرهم فى المشاهد والحروب بين يدى الملك العادل نور الدين كما يذكر ابن واصل.

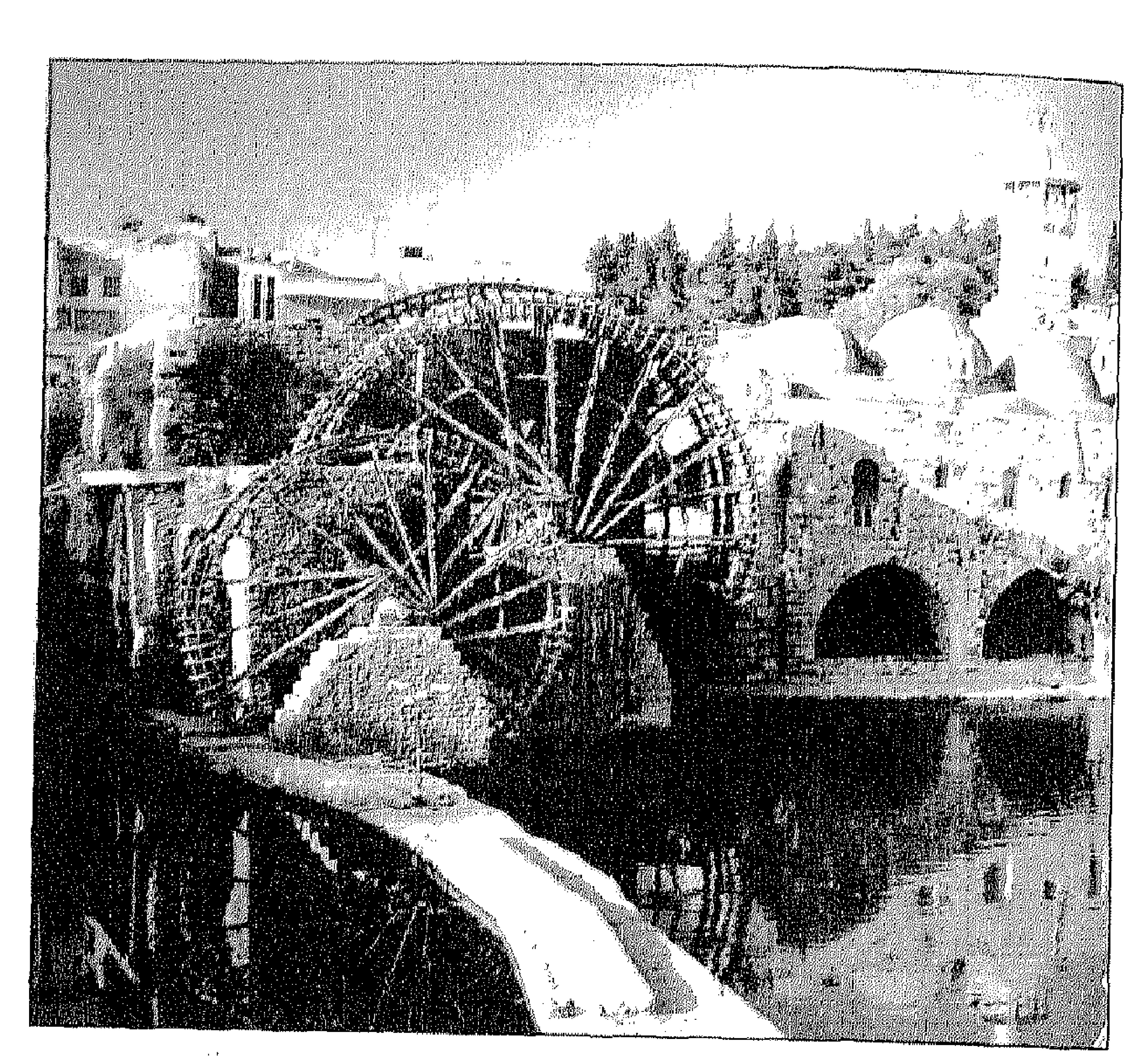
كـان نور الدين كريما أيـضا مع أجناده يوزع عليـهم الأمـوال والعطايا، فيـذكر ابن الأثير فى التاريخ البـاهر: « أنه أكثر الخـرج، إلى أن قسم فى يوم واحد مائتى ألف دينار حمر، سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك ».

كما كـان نور الدين يحرص كل الحرص على هيبـته أمام قواده وجنده فتـذكر المصادر « أنه ضبط نامـوس الملك حتى مع أجناده وأصحـابه إلى غاية لا مزيـد عليها، وكـان يلزمهم بوظائف الخدمة، الصغير منهم والكبير ».

وكان مـجلسه مجلسـا وقورا لا يذكر فـيه إلا المشورة فى أمر الجـهاد وقصـد بلاد العدو، يجلس فيه الأجناد وغيرهم وكأن على رءوسهم الطيـر، تعلوهم الهيبة والوقار، إذا تكلم أنصتوا، وإذا تكلموا استمع إليهم. ويروى ابن عساكر أنه امتنع عن حضور مجلس صلاح الدين الأيوبى لما فيه من اللغط وسوء الأدب، فطلبه صلاح الدين وعاتبه لانقطاعه عن مجلسه فقال له ابن عساكر: «نزهت نفـسى عن مجلسك لأنى رأيتـه كبعض مـجالس السـوقة، لا يسمع إلـى قائل، ولا يرد

سور الرقة الذى أعاد ترميمه نور الدين محمود



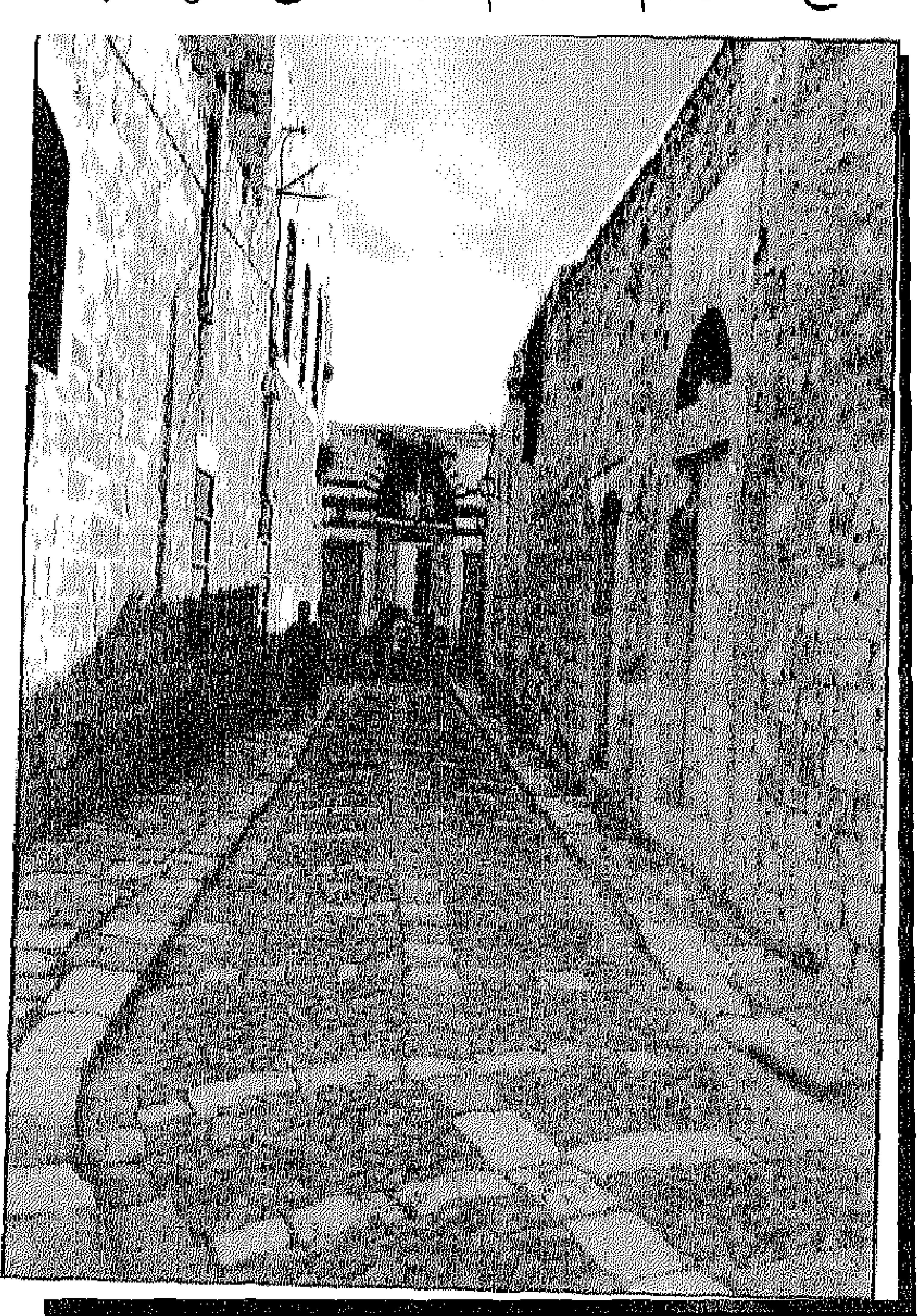


جواب متكلم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين - فكنا كأن على رءوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا وإذا تكلمنا استمع لنا».

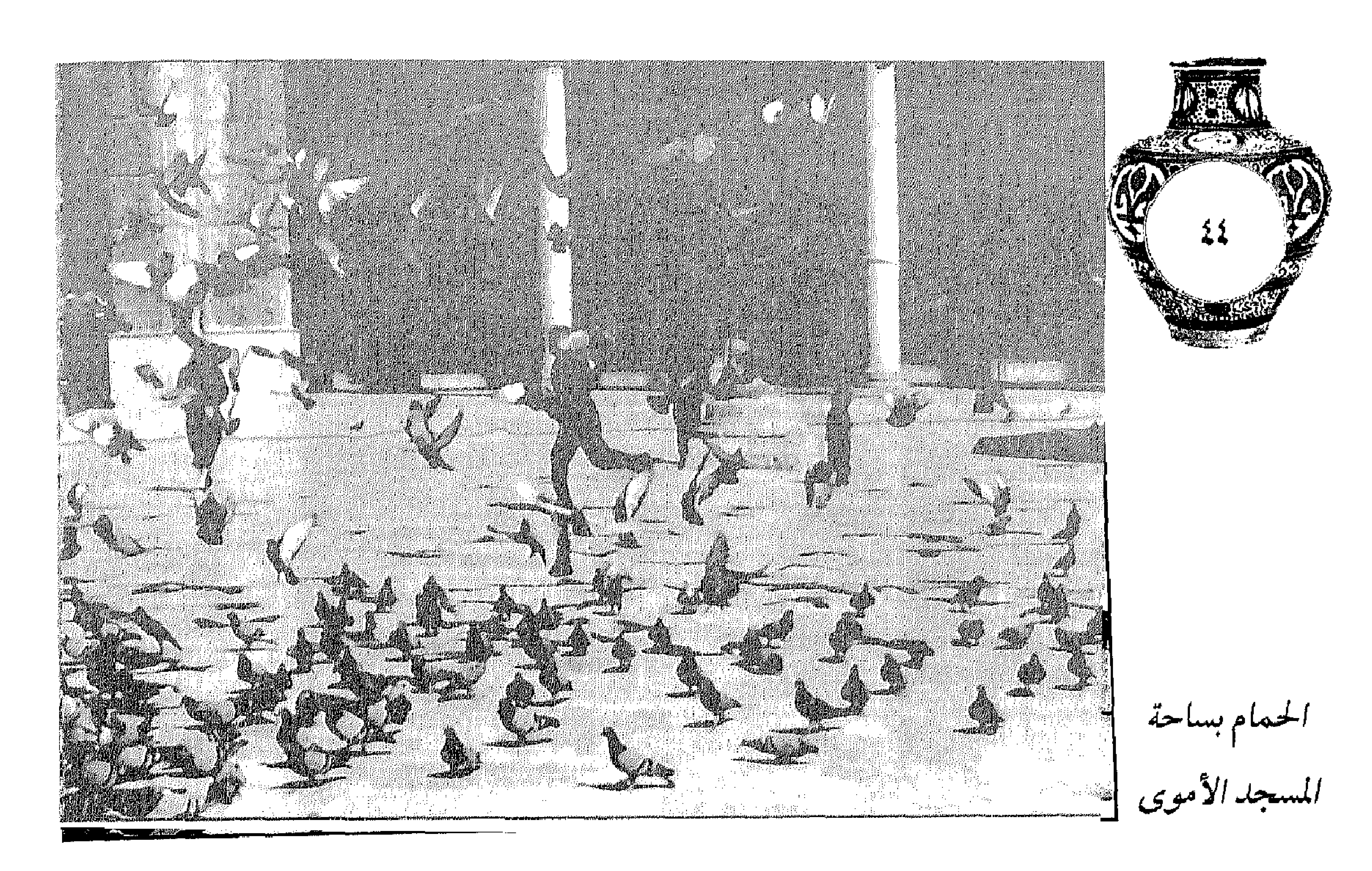


نواعير مدينة حماه

وإلى جانب عناية نور الدين بأمر الأجناد، فقد عنى كذلك ببناء الأسوار والقلاع وإصلاح وترميم ما تهدم منها حتى تكون البلاد على أهبة الاستعداد دائما لملاقاة العدو. فبنى الأسوار حول مدن الشام جميعها، وحصنها وأحكم بناءها وخصص لها حصة كبيرة من المال، وحرص نور الدين على أن يشرف بنفسه على سلامة هذه الأسوار والقلاع، فكان إذا أتى بلدا دار بسوره وفحص أجزاءه، ورمم الضعيف منها، خاصة أن كثيرا من بلاد الشام كانت تتعرض فى بعض الأحيان للزلازل، وما يترتب عليها من تدمير وتخريب للأسوار والقلاع، فحدث فى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م أن وقعت زلزلة ببلاد الشام، فخربت حماه وشيزر وكفرطاب ومعرة النعمان وحمص وغيرها، وتهدمت أسوار هذه البلاد، فجمع نور الدين العساكر، وخاف على البلاد من الفرنج (الصليبيين) وشرع فى عمارتها وإصلاح ما تهدم منها حتى أمن عليها.



دروب حماه القديمة

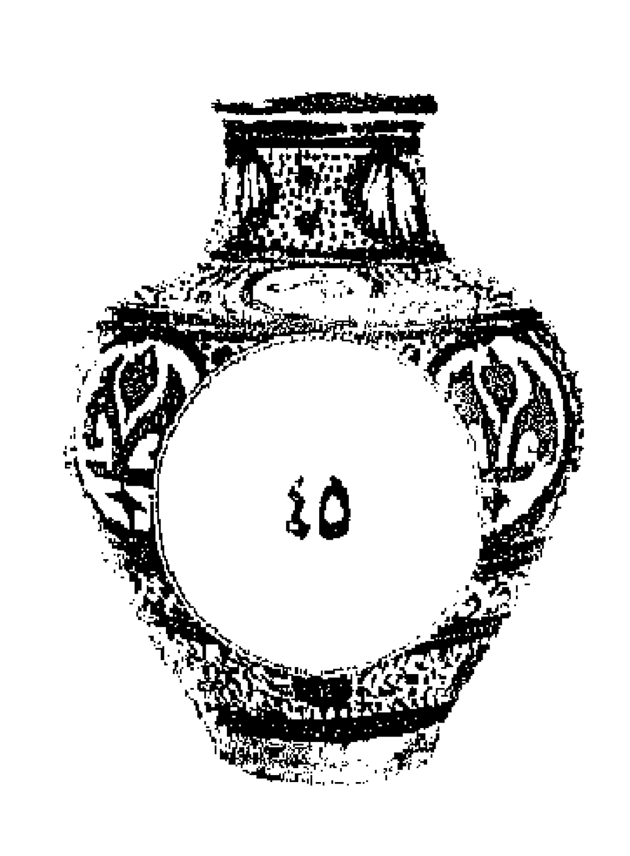


الحمام بساحة
المسجد الأموى

كذلك تعرضت أسوار مدن الشام وقلاعها للتخريب والتدمير على أثر أعنف زلزال شهدته بلاد الشام فى عهد نور الدين محمود فى سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م فيذكر ابن الأثير: « أنها زلزلة عظيمة، لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد فى الشام ومصر وديار الجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وحلب وغيرها من البلاد، وتهدمت أسوارها وقلاعها ».

وعندما علم نور الدين بأخبار هذا الزلزال سارع إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، ورتب بها من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم جاء إلى حماه وإلى بعرين، وكان سورها قد تهدم تماما ولم يبق منه شيئا، لذلك جعل فيها نور الدين طائفة من العسكر مع أمير كبير وهو عين الدولة بن كوخان، ووكل بالعمارة من يحث عليها وباشر بنفسه عمارتها ووقف على البنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم عمارة جميع أسوارها، بل وبنى سور ثان حول البلد وأخرج الأموال اللازمة لذلك كما تذكر المصادر.

واستعان نور الدين بريع بعض الأوقاف فى النفقة على بناء الأسوار والقلاع، قال أبو شامة حدثنى والدى قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبا غانم وشرف الدين بن أبى عصرون، وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص. ويذكر البندارى أيضا أن نور الدين كان يأمر القاضى بأن يتصرف فيما بقى من أموال الأوقاف فى صرفه على بناء الأسوار وحفظ الثغور. وسعى نور الدين كذلك إلى استخدام أموال المنافع العامة فى سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، لأن هذه الأمور كانت عنده أهم المصالح. ومن أجل ذلك عقد نور الدين مجلسا بقلعة دمشق فى صفر ٥٥٤هـ/ يوليو ١١٤٩ م



حضره من القضاة القاضى زكى الدين أبو الحسن، ومن الفقهاء الشافعية الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون، ومن المالكية الشيخ شرف الدين أبو القاسم، ومن الحنابلة الشيخ شرف الإسلام نجم الدين، ومن الأعيان عبد الصمد نجم، وعبد الواحد بن هلال وغيرهما، ومتولى الخزانة بدمشق نظام الدين أبو الكرام، وسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المنافع العامة (أى العقارات وغيرها) التى ليست وقفا عليه وهل يجوز صرفها فى عمارة الأسوار وعمل الخندق، فاختلفوا فى ذلك، فأفتى الشيخ شرف الدين أبو القاسم المالكى بجواز ذلك، أما الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون فأفتى بأنه لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وأجاز لنور الدين أن يأخذ من هذه الفواضل قرضا يستخدمه فى تلك الوجوه على أن يرده إلى بيت المال، ووافقه الأئمة على ذلك، فقبل نور الدين رأى المجلس، ولم يمس أوقاف الجامع أو فواضله احتراما لرأى الفقهاء.

سادسا : إدخال الحمام الهوادى

ويجب ألا ننسى اهتمام نور الدين محمود بوضع نظام محكم لمعرفة أخبار أجناده وقادته أول بأول وذلك بواسطة الحمام الهوادى، فيذكر العمرى : «أن أول من اعتنى بالحمام الهوادى من الملوك هو الشهيد نور الدين محمود بن زنكى، ونقله من الموصل فى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. وفى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م عمم نور الدين استخدام الحمام الهوادى فى سائر بلاده وجعل له مراكز : فمن دمشق يسرح الحمام إلى بعلبك، ويسرح إلى قارا، ويسرح من قارا إلى حمص ومنها إلى حماه، ومنها إلى المعرة ومنها إلى حلب، ومن حلب إلى البيرة. . . وهكذا.

وكانت مهمة الحمام نقل الرسائل والأخبار إلى الآفاق فى أسرع مدة وأيسر عدة وقد قال فيه القاضى الفاضل : «الحمام ملائكة الملوك».

أما عن السبب الذى دفع نور الدين إلى اتخاذ الحمام الهوادى وتعميمه فى بلاده، فيروى ابن الأثير :« كان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، وكان يتخللها بلاد الفرنج، وربما نزل الفرنج بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد ».

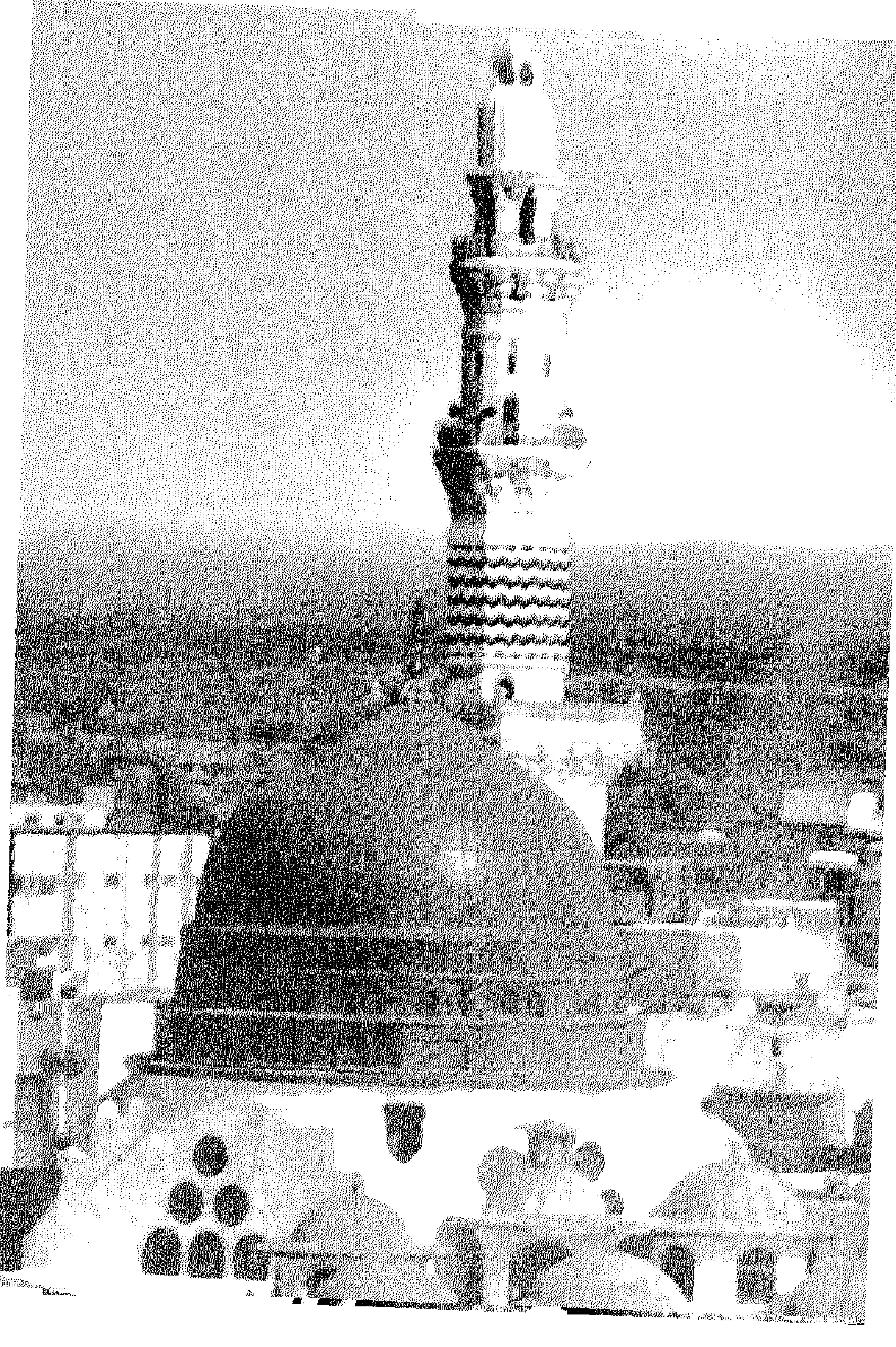
اهتم نور الدين بالحمام الهوادى، وأجرى الجرايات له ولمربيه، ووضع فى كل ثغر رجالا مرتبين ومعهم حمام المدينة التى تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه، فيصل إلى المدينة التى هو فيها فى ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه.

وبفضل الحمام الهوادى واستخدامه تم حفظ الثغور من هجمات الفرنج، فيذكر ابن الأثير :

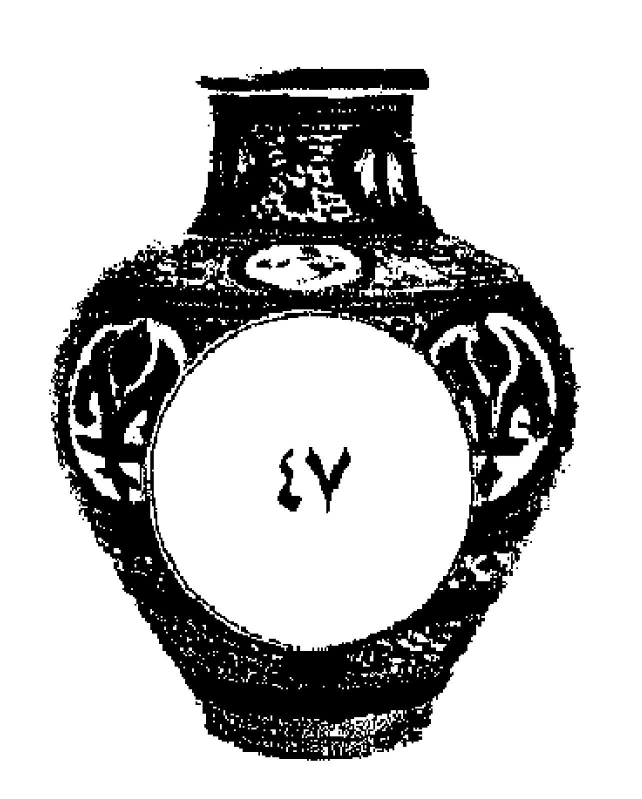
«أن طائفة من الفرنج نازلوا ثغرا لنور الدين، فأتاه الخبر ليومه بفضل استخدام الحمام الهوادى، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو، ففعلوا وانتصروا على الفرنج، وهم آمنون لبعد نور الدين عنهم». ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : « فرحمه الله، ورضى عنه ما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد » أما أبو شامة فقد علق على استخدام نور الدين للحمام الهوادى بقوله : « وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا ».

ولم تقتصر أهمية الحمام الهوادى على معرفة أخبار العدو فحسب بل كانت له فائدة أخرى عظيمة وهى معرفة أخبار البلاد التابعة لنور الدين محمود فيذكر الأصفهانى : « أن نور الدين كان لا يقيم فى المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغور ورعاية البلاد، وهو متشوق إلى أخبار مصر وأحوالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريبها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وكتب منشورا بذلك لأربابها وأصحابها».

ومن مآثر نور الدين محمود أيضا - كما تذكر بعض الروايات - أنه دخل المدينة المنورة فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة ومعه وزيره على غفلة من أهلها. . وأمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقا عظيما حول الحجرة الشريفة كلها، وأذيب ذلك الرصاص، وملأ به الخندق، فصار حول الحجرة الشريفة سورا رصاصا، ثم عاد إلى ملكه » وقد بنى هذا الخندق حول قبر الرسول ﷺ حفاظا عليه وخوفا من أن ينبشه الصليبيون أو ينقلوه إلى بلادهم.



المدينة المنورة



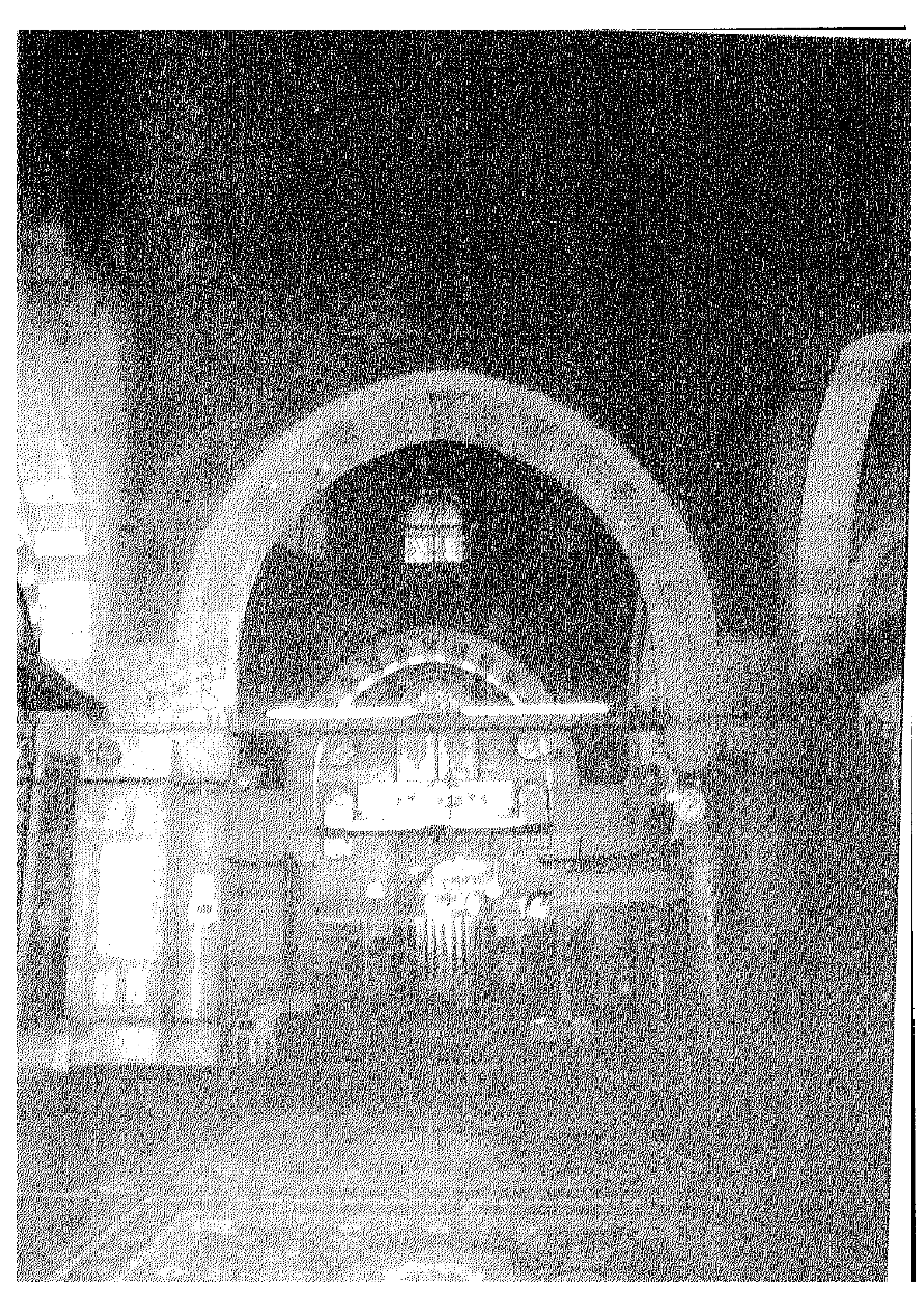


الفصل الرابع
سياسة نور الدين محمود الخارجية

أولا: سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة الرها

كان على نور الدين محمود أن يواجه العديد من الأخطار الخارجية وفى مقدمتها وأهمها خطر الصليبيين وهو ما ستركز عليه الدراسة، فقد نجح الصليبيون فى أن يؤسسوا لأنفسهم أربع أمارات صليبية فى بلاد الشام على أثر مجىء الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م. وهذه الإمارات هى إمارة الرها، إمارة أنطاكية، إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، ونجح عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود فى أن يسترد إحداها من أيدى الصليبيين وهى إمارة الرها وذلك فى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. وقد وضع نور الدين لنفسه سياسة تجاه الصليبيين تتمثل فى الحفاظ على إمارة الرها التى استردها أبوه عماد الدين مع التفرغ لمحاربة سائر الإمارات الصليبية الأخرى، وإتمام المشروع الذى بدأه أبوه والخاص بطرد الصليبيين من بلاد الشام.

وكانت أولى المشكلات التى واجهت نور الدين من جانب الصليبيين خاصة بعد وفاة أبيه هى عصيان مدينة الرها، فتذكر المصادر أنه بعد أربعين يوما من موت زنكى، جمع جوسلين الثانى - صاحب الرها السابق - قواته



داخل المسجد الأقصى - بيت المقدس



وقرر الزحف على الرها واستعـادتها، بعد أن راسل من بها من الأرمن، واتفق معهم على مساعدته فى دخـول المدينة مرة ثانية. وفى جمادى الآخرة ٥٤١هـ/ نوفمبر ١١٤٦م، دخل جوسلين - حـاكم الرها السابق - الرها بمساعدة الأرمن ومعاونتهم وبذلك استعاد الرها مرة ثانية.

وما كاد نور الـدين يعلم بما حدث فى الرها حتى أسرع إليـها على رأس قواته، وحاصر المدينة من جـميع الجهات، فوقع الصليبيـون بداخلها بين شقى الرحى، بين قوات نور الدين التى حاصرتهم من الخـارج، وحامية قلعة المدينة التى هاجمـتهم من الداخل، ولما شعر الجيش الصليـبى وأهالى المدينة بعدم قدرتهم على مـواجهة الحصـار فتحوا أبواب المدينة وخـرجوا منها، ودخل نور الدين الرها وأباحها لجنوده فنهبوها وخربوها،ونكلوا بسكانها النصارى، وبخاصة الأرمن جزاء وفـاقا لغـدرهم بالمسلمين وتسليمـهم المدينة لجوسلين، وعـاد نور الدين بالغنائم إلى حلب بعد هذا الانتصار. ويعتبر المؤرخون استعادة نور الدين للرها ثانية هو «الفتح الثانى» لها بعد أن فتحها أبوه زنكى فيذكر ابن الأثير : «وكان هذا فتحا ثانيا، وبقيت الرها بيد بيت زنكى ».

لم يكتف نور الدين باسـتعـادة الرها من يد جوسلين، ولكنه قـرر انتزاع القـلاع التى كان يمتلكها ومنها قلعة عزاز وتل باشر - شـمال حلب - وعين تاب (أو عينتاب) بين حلب وأنطاكية، وغيـرها من الحصون التـى كانت بيد جـوسلين. وخرج نور الدين من أجل هذا الغـرض فى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، فجـمع جوسلين الفرنج (أى الصليـبيين) فارسهم وراجلهم - كـما يروى ابن الأثير - ولقـوا نور الدين، وانهزم المسلمون، وانتصـر الفرنج، ونجح جوسلين فى أسـر سلاحدار (صاحب السلاح) نور الدين، وأخذ ما معـه من السلاح، وأرسله إلى السلطان السلجوقى مسعود ابن قلج أرسلان - سلطان قونيه وصهر نور الدين - وقال له : « قد أنفذت لك سلاحدار صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره ».

كان لتلك الهزيمة وقعها المرير على نور الدين، فـهجر الراحة وسعى للأخذ بثأره، ووضع خطة محكمة لإيقاع جوسلين فى الأسر، ووعد مـن يأتى به أسيرا أن يعطيه من الأموال والبلاد ما يريد، فجاءته طائفة من التركـمان وأبدت استعدادها للقيام بأسره، ونجح هؤلاء بالفـعل فى مباغتة جوسلين فى عينتـاب، وأغاروا عليه بعد أن كمنوا له، وأخذوه أسـيرا، وحملوه إلى نور الدين - الذى كان بحمـص فى ذلك الحين - فأعطى من جاء به عشـرة آلاف دينار، ثم نقل جوسلين إلى قلعة حلب حيث سجن بها.

وكان أسر جـوسلين «من أعظم الفتوح فى الإسـلام » كما تذكر المصـادر، وذلك لأنه كان كما وصفه ابن الأثير : «شيطانا عاتيا من شـياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين، وقسوة قلب عليهم، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفى بعهد، وطالما صالحه نور الدين وهادنه،



فإذا أمن جانبه، نكث العهد والمواثيق وغدر ». وبأسر جوسلين أيضا خلت بلاد الفرنج من حاميها وحافظها، وتمكن نور الدين من فتح الكثير من بلاده وقلاعه ومنها عزاز وذلك فى عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، ثم فتح بعد ذلك تل باشر وعينتاب. وكان نور الدين إذا فتح حصنا من الحصون لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفا من أن يهاجمه الفرنج. وبهذه الطريقة أمن فتوحاته وانتصاراته، وضمن ألا تقع فى أيدى عدوه ثانية.

أما ما بقى من إمارة الرها فقد ظل فى يد بياتريس Beatrice زوجة جوسلين الثانى عقب أسر زوجها، وقد استغل الأمبراطور البيزنطى مانويل كومنين (١١٤٣- ١١٨٠م) فرصة الضغط النورى الذى تعرض له الصليبيون وتقدم بعرض إلى بياتريس بشأن شراء ما تبقى تحت يدها من إمارة الرها بمبلغ من المال يجريه عليها وعلى طفليها مدى الحياة، وقبلت بياتريس عرض الإمبراطور البيزنطى بعد أن عرضت الأمر على الصليبيين، الذين وافقوا أيضا على أمل أن يؤدى امتلاك الإمبراطور البيزنطى بقية إمارة الرها إلى صدام مع نور الدين من شأنه أن يستفد قوى الطرفين، ويمكن الصليبيين من استعادة قواهم ونفوذهم فى بلاد الشام، وخاصة أن الإمبراطور مانويل تعهد بمحاربة نور الدين محمود ومسعود صاحب قونيه وغيرهما من أمراء المسلمين.

غير أن الدولة البيزنطية شغلت عن ممتلكاتها الجديدة ونسى الإمبراطور أو تناسى وعوده للصليبيين بالعمل على استعادة أراضى الرها من يد نور الدين، وأصبح الخطر وشيكا على هذه الحصون التى ضاعت قبل أن يمضى عام على امتلاك البيزنطيين لها، إذا لم يستطع البيزنطيون الصمود فى وجه الهجمات المتكررة التى قام بها نور الدين، وانتهى الأمر بنجاحه فى حصار ما بقى من قلاع وحصون فى إمارة الرها، واستطاع كما يذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى «فى مدى عام واحد فقط أن يستولى على الإقليم بأجمعه ». ويعتبر هذا الإنجاز من الإنجازات الكبيرة التى سجلها التاريخ لهذا القائد والزعيم المسلم إذ بفضله زالت إمارة الرها الصليبية بصفة نهائية من خريطة الشرق العربى الإسلامى».

ثانيا : نور الدين محمود وإمارة إنطاكية

أما عن الإمارة الثانية وهى « إمارة إنطاكية » فقد اصطدم نور الدين بالصليبيين فيها بعد موت أبيه مباشرة، إذا استغل أميرها ويدعى « ريموند دى بواتييه » فرصة اضطراب أحوال المسلمين بموت زنكى، وانشغال نور الدين بترتيب أموره فى العراق وحلب، وهاجم حلب فى اليوم السابع من استقرار نور الدين فيها، وعاث فيها فسادا، وقتل وسبى عالما عظيما كما يذكر أبو شامة. وردا على ذلك قام نور الدين بحملة انتقامية، أرسل على رأسها قائده أسد الدين شيركوه، ونجح أسد



الدين فى إنقاذ عـدد من الأسرى، واستعاد بـعض ما أخذه الصليبـيون، وأغار على أملاكهم، واستولى على معظمها خاصة أملاك إمارة إنطاكية الواقعة شرقى نهـر العـاصى (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م). وأظهـر نور الديـن بذلك أنه لا يقل قـوة وعزما عن أبيه، مما يجعله أخطر أعداء الصليبيين عامة، وإمارة إنطاكية خاصة.

وما أن شـعر ريموند بضـغط هجمـات نور الدين على إمارته حـتى بادر بمهاجمة نور الدين على حين غفلة منه، وذلك بمساعدة على بن وفا الكردى وأتباعه من الباطنية - وهم أكبر فـرقة شيعيـة فى بلاد الشام وعرفوا كذلك بالحـشيشية- الذين كـانوا يحقدون على نور الدين لإبطاله شعائر مذهبهم الشيعى فى حلب، واستطاع ريموند إجبار نور الدين على التقهقر إلى حلب، وذلك فى رجب من عام ٥٤٣هـ/ نوفمبر ١١٤٨م.

ودفع هذا النصر - الذى حقـقه ريموند أمير إنطاكية - نور الدين إلى أن يوجـه جهوده ضد إنطاكيـة مرة أخرى، وأن يواصـل الجهاد ضـد الصليبيين ومن أجل ذلـك جمع جيـشا كبـيرا من المسلمين اشتـركت فيه جيوش دمـشق وعلى رأسها الأميـر مجاهد الدين بزان، وعسـاكر الموصل والجـزيرة وجمع كـبيـر من التركـمان، وخـرج نور الدين على رأس هذا الجـيش فى صفـر سنة ٥٤٤هـ/ يونيو ١١٤٩م، واتجه نحو إنطاكية، ويذكر وليم الصورى أنه « راح يعيث فسادا وتخريبا فى كل ما حول إنطاكية فى جرأة غير مألوفة، وعزم على تطويق القلعة المعروفة باسم قلعة « أنب» - شرق نهر العاصى - فلما أيقن ريموند أمير إنطاكية من قيام نور الدين بهذا العمل، هب لساعته غير منتظر قـدوم الفرسان الذين كان قد أمر باسـتدعائهم، واندفع فى طيش إلى ذلك الموضع مع حفنة صغيرة من الرجال».

ويتابع وليم الصـورى روايته فيذكـر :« وبدأ القتال إلا أن جنود ريموند كـانوا أقل بأسا فلم يستطيعوا الصـمود أمام زحوف خصمه الكثيرة، وولى رجـال ريموند فرارا، ولـم يبق سواه فى نفر قليل من عسكره، وخـر ريموند صريعا، وحملت رأسه إلى نور الدين». وهـكذا انتصر نور الدين على الصليبـيين، وأظهر من الشجاعة والصـبر فى الحرب على حداثة سنة، مـا تعجب منه الناس على حد تعبير ابن الأثير.

كان مصرع ريموند خسارة كبيرة للصليـبيين، لأنه كان كما يذكر أبو شامة «من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدة البأس، وقوة الحيل، وعظـم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهى فى الشر » لذلك كان مصـرعه نكبة كبيرة حلت بالصليـبيين فى الشام على يد قوات نور الدين محـمود، إذ عـدمت إنطاكيـة بعد مـصرعه من يدافع عنـها لأنه لم يترك سـوى أرملة هى كونستانس وابن صغـير وهو بوهيموند الثالث، لذلك «أصبحت المنطقة بـأكملها- كما يروى وليم الصورى - تحـت رحمة نور الدين مـحمـود» وأصبح بإمكانه الاسـتيـلاء على الحصـون والقلاع



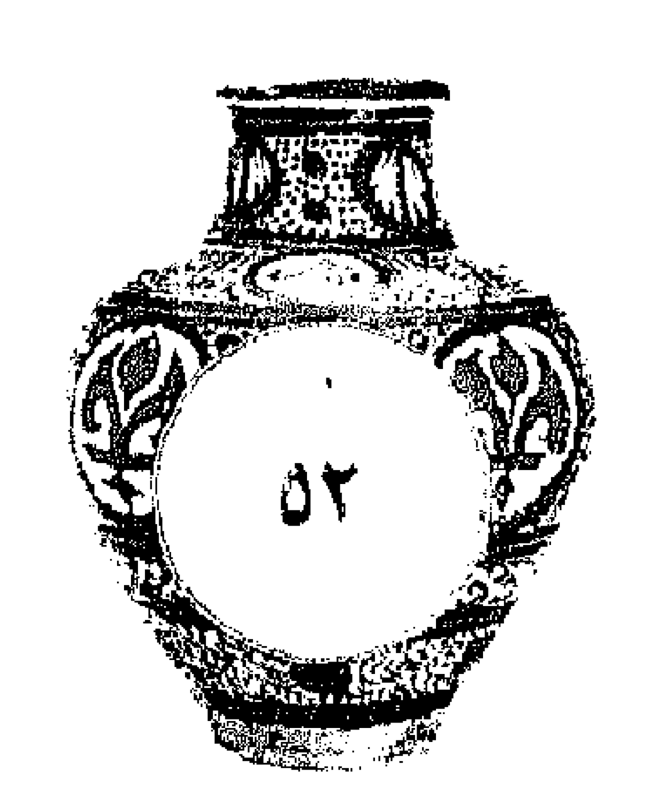
والمعاقل الموجودة حـول إنطاكية، وتمكن نور الدين بالفعل من الاسـتيلاء على قلعـة حارم - التى لا تبـعد عن إنطاكـية أكـثر من عـشرة أميـال - ثم زودها بالسلاح وجهزها بالميرة، وأمدها بالعسـاكر لتكون قادرة على الصمود بعد ذلك (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) ولم يكن أمـام الصليبـيين سـوى مصـالحتـه على نصف أعمالها (أى المدينة التابعة لها).

ثم تقدم نور الدين نحو إنطاكيـة نفسها، فصالحه أهلها على أن يكـون ما قرب من الأعمال الحلبية له، ومـا قرب من إنطاكية لهم وتقـدموا إليه بالهدايا والأمـوال فقبلها خشـية تدخل الدولة البيزنطية فى شئون إمارة إنطاكيـة - كما فعلت فى إمارة الرها - ورحل نور الدين عنها لمنازلة بقية الحصون التابعة والمجاورة لها ومنها حصن أفـامية، وهو من أمنع الحصون الصليبية المطلة على نهر العاصى، ويصفه ابن الأثير بقوله : « هو حصن منيع على تل مرتفع عال، وهو من أحصن القلاع وأمنعـها » وتمكن نور الدين من مـحاصرة هذا الحـصن، وانتزعـه من أيدى الصليبـيين (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج إليه الحصن.

وكان نور الدين يهدف مـن وراء انتزاع الحصون والقلاع المحـيطة بإنطاكية إلى إضعـافها من ناحية، والقضاء على أى تهديد يمكن أن تشكله إمارة إنطاكية على حلب بحيازتها هذه الحصون من ناحية أخرى. وتجدر الإشارة إلى أنه كان فى استطاعـة نور الدين أن يستولى على إنطاكية أكثر من مرة، ولكنه كان يخشى أن يؤدى ذلك إلى صدام مع بيـزنطة لا قبل له به، إذ كان يقول لأصحابه عندما يشيرون عليه بالاستيلاء على إنطاكيـة : « أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التى لها فهى منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيـقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجـاورة بيمند (أى بوهيموند الثـالث أمير إنطاكيـة) أحب إلى من جوار ملك الروم (أى الإمبراطور البيزنطى)».

ثالثا : سياسة نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس

ترتب على زوال إمارة الرها وإضعـاف إمارة إنطاكية أن انتقل مركـز الثقل الصليبى إلى مملكة بيت المقدس التى كان يحكمـها آنذاك ملك صغير هو بلدوين الثالث وبوصـاية أمة مليزاند، مما دعا نور الدين إلى أن يوجه نشاطه ضد الصليبيين نحو مملكة بيت المقدس، وقد ساعده على ذلك نجاحه فى دخول دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م إذ أن سيطرته على هذه المدينة كـانت تعنى نجاحه فى تحقيق الوحدة بين شمال الشـام ووسطه أو بين حلب ودمشق، وإقامة خط دفاعى قوى بيـنهما، مما كان له أبلغ الأثر على الصليبيين وقد عبر عن ذلك المؤرخ وليم الصـورى بقوله : « وكان هذا التغيير الذى أحدثـه نور الدين فى دمشق كـارثة لحقت بمصـالح مملكة بيت المقـدس، لأنه وضع الصليبـيين فى



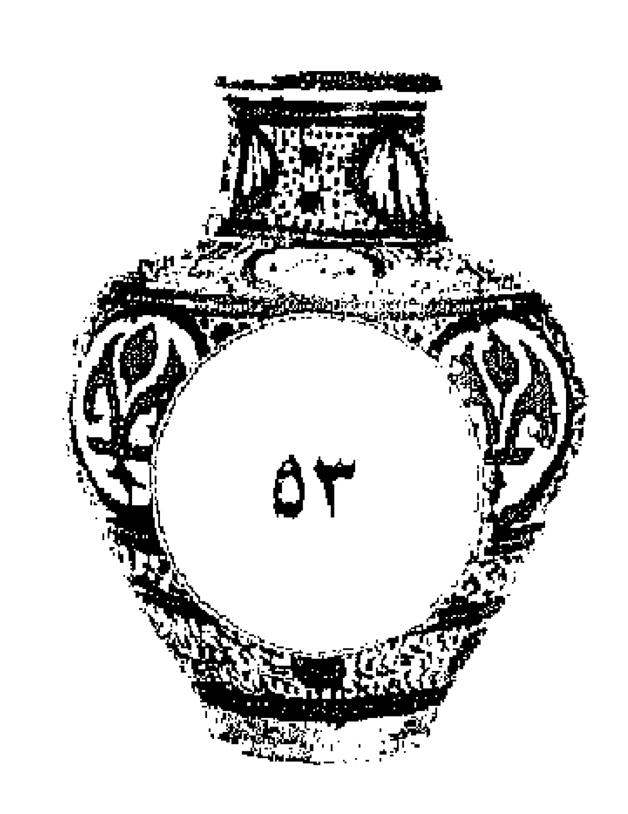
مواجـهة خصم عنيـد فى شدته محل رجـل مسلوب الإرادة » يقصـد هنا حاكم دمشق الأسبق.

ومع ذلك فقد منـع الحذر نور الدين من المضى فى ملاحقـة انتصاراته، وارتبط بعـلاقات مودة مع الصليبيين إذ يذكـر ابن القلانسى فى حـوادث سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م « وفى اليـوم الرابع والعـشـرين من ربـيع الأول من السنة، تقررت أسـباب الموادعة بين الملك العـادل نور الدين - صاحب دمشق - وبين ملك الفـرنج تقدير السنة، وتمهدت القاعدة على هذه الحال إلى آخر المدة المستقرة ».

وفى العام التالى ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، أكد نور الدين من جديد مـا كان قائما من تحالف بين دمشق وبيت المقدس لمدة عـام آخر، ودفع ثمانية آلاف دينار، استمرارا لما كـان يؤديه حاكم دمشق السابق مجـير الدين، ويرجع سبب ذلك إلى انشـغال نور الدين بحروبه وصراعه مـع السلاجقة، فيذكر ابن القلانسى فى حـوادث هذه السنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م « وتقررت الموادعة والمهادنة بينه (أى نور الدين) وبين ملك الفـرنج (بلدوين الثـالث) مدة سنة كـاملة أولها شـعبـان، وأن المقاطعـة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية - هى دنانير يؤتى بها من بلاد الفرنج والروم، وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمانه وعلى الوجه الآخر صورة القديسين بطرس وبولس وتعرف كذلك بالأفرنتية-، وكتبت الموافقة بذلك بعد تأكيدها بالإيمان والمواثيق المشدودة».

ولكن ما لبث بلدويـن الثالث - ملك مملكة بيت المقدس - أن نقـض الهدنة مع نور الدين فى ذى الحجة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م وذلـك لوصول عدد كبيـر من الصليبيين عن طريق البـحر، وقد هاجم هؤلاء ناحيـة الشعراء المجاورة لبـانياس، وكان قـد تجمع بها عدد كـبير من الخيل والماشـية والفلاحين بأعداد لا تحـصى وذلك لرعى ماشيتهم بهـا اعتمادا على الهـدنة الموقعة بين نور الدين والصليبيين، ولكن انتهز الصليبيون هذه الفرصة، واستاقوا جميع ما وجدوه من ماشية وأغنام، وما أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا ظافرين غانمين آثمين كما يروى ابن القلانسى.

وخرج نور الدين فـى ربيع الأول ٥٥٢هـ/ مايو ١١٥٧م للانتـقام من الصليبـيين بمهاجـمة بانياس وحصارها، ويذكر وليم الصورى : « وطوق نور الديـن بانياس - التى أجبرتها النكبة على أن تخر على ركـبتيـها - ونصب عليهـا آلات الحصار، ثم باغـتها فـجاة وطوقهـا بقواته، ثم بدأ عمليات الحصـار ورمها رميا متواصـلا غير مقطوع لدرجة لم تسمح للمـحاصرين بداخلها من أن يلتقطـوا أنفاسهم، وسـقطت المدينة فى يده دون قلعتـها، التى كـاد قائدها يستـسلم لولا أن علم بمجىء بلدوين الثالث، الذى أسـرع إلى حشد كل ما أمكن حشده مـن العسكر، وعجل بالزحف على بانياس.



وما كاد نور الـدين يعلم بأن بلدوين فى طريقه إليه، حتـى رفع الحصار عن المدينة، وأشعل فـيها النيران بعـد استيـلائه عليها، ويشهـد وليم الصورى بكفاءة نور الدين محمود فـيذكر «وهداه ثاقب فكره وبعد نظره إلى عدم الإذن لقواته التى حـشدها بالتفرق، ثم زاد فـاستدعى المزيد منها، وكـمن فى الغابة المجاورة فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث ».

ووصل الملك بلدوين إلى بانياس، فأصلح ما تخرب من المدينـة وجدد التحصينات، ثم قرر العودة، وعندئذ هب نور الدين - مغتنما هذه الفـرصة الملائمة له، وأسرع بالزحف نحوهم، وهم فى غفلة ساهون، وأغار عليهم، وانتصر عـليهم انتصارا ساحقا (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) واضطر الملك للانسحاب لينـجو بنفسه، وقتل عـدد كبير من الصليبيـين، بينما وقع عدد أكبـر فى الأسر، ويعدد وليم الصورى أسماء هؤلاء الأسرى فى كتـابه. وغنم نور الدين غنائم كثيرة إذ يذكر ابن القلانسى : « وامـتلأت أيدى العـسكر من خـيولهم، وعـددهم وكراعـهم وأثاث سـوادهم الشىء الذى لا يحصى كثرة ».

وأعد نور الدين العـدة مرة ثانية، وعاد لمحاصـرة بانياس - لأنه بشهادة ولـيم الصورى كان محـاربا لا يعتريه الكلل ولا يناله التـعب، شديد الحرص على مواصـلة انتصاراته بعضـها فى أثر بعض. وضرب نور الدين الحـصار على بانياس من جـديد، ونصب عليها آلاته الحربيـة العديدة، فأدت قـذائفـه الحربيـة إلى زعزعـة الأبراج وتخلخل الأسوار، وأدرك أهل بانـياس عـدم جدوى مقاومتهم فارتدوا نحو القلعة، ولكن اضطر نور الدين أن يرفع الحصار عن المدينة ويغود إلى حلب على وجه السرعـة بعد أن جاءته أنباء تفيد بأن قلـج أرسلان سلطان السلاجقة يعد العـدة للهجوم على أملاكه فى الشمال.

وأحس بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس بـخطورة نور الدين على مملكته لذلك سعى للتحـالف مع الدولة البيزنطيـة لمواجهة خطر نور الدين، ودعم هذا التـحالف بالمصاهرة، فـتزوج بلدوين من أمـيرة بيـزنطية هى ابـنة أخى الإمبـراطور مانويل كـومنين (٥٣٧- ٥٧٦هـ/ ١١٤٣- ١١٨٠م) وتدعى ثيودورا وذلك فى عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، ويشير ابن القلانسى إلى هذا التحالف بقوله : « إن المصلحة بينه (أى ملك الفرنج) وبين ملك الروم (أى الإمبراطور البيزنطى) تقررت، والمهادنة انعقدت ».

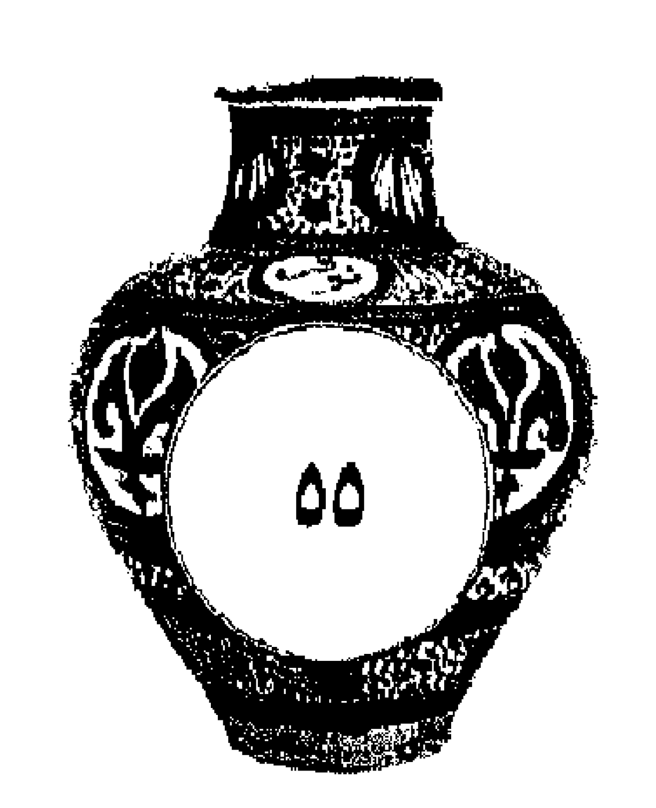
استعـد الحليفان لقتـال نور الدين، وانضم إليهما ريـنو دى شاتيون (أرناط) أمير إنـطاكية، وقوات ثوروس الثانى أمير أرمـينية، وساروا جميعا صوب حلب، إيمانا منهم بـأن سقوطها يسهل السيطرة على شمال الشام. والتقدم جنوبا صوب دمشق، لوضع الدولة النورية بين شقى الرحى.

وعندما وصلت أنباء تقدم القوات المتحالفة إلى نور الدين، سارع على الفور باتخاذ التدابير اللازمة، التي من شأنها إعداد الجبهة الإسلامية لمواجهة هذا الحلف، فأسرع بالتوجه إلى بلاد الشام لإيناس أهلها من استيحاشهم من شر الروم والفرنج. وشرع فى مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل ليوقفهم على خطورة الموقف، وليحثهم على اليقظة والاستعداد والتأهب للجهاد ضد الصليبيين والبيزنطيين. كما أرسل فى طلب العون من حلفائه وأتباعه من المسلمين ليتمكن من التصدى لهذا التحالف الصليبى البيزنطى، وأتته الأنباء بتواصل الأمراء المقدمين وولاة الأعمال المجاهدة من الموصل وماردين وأربل وغيرها، فأحتشدت لديه حشود عظيمة.

وما أن وصلت القوات المتحالفة إلى حوض نهر العاصى على مقربة من حلب، حتى حدث ما لم يكن فى الحسبان ولا خطر ببال على حد تعبير ابن القلانسى فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين رسولا من قبله إلى نور الدين يطلب منه الصلح والموادعة (سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) ومعه هدية من أثواب ديباج وغير ذلك، ويرجع ذلك إلى أن مانويل وجد نور الدين خير كابح لجماح الصليبيين الذين كانوا يعترفون بسلطنه حينما يتهددهم خطرمن الشرق لذا قرر عدم محاربة نور الدين.



القسطنطينية عاصمة البيزنطيين



تكررت المراسلات والاقتراحات بين نور الدين والإمبراطور مانويل، وأجاب نور الدين ما التمسه منه الإمبراطور وهو إطلاق سراح الأسرى الصليبيين- وقد تراوحت أعدادهم بين ستة آلاف وعشرة آلاف أسير -وكان معظمهم من الألمان الذين أسروا أبان الحملة الصليبية الثانية، كذلك أطلق نور الدين سراح بعض الشخصيات البارزة ومنها الكونت برتراند من تولوز أمير طرابلس، وبرتراند من بلانكفورت مقدم فرسان الدواية - هم فرسان المعبد- وغيرهما كما شمل الصلح تعهدا من جانب نور الدين بتأمين مرور الحجاج المسيحيين داخل الأراضى التابعة للدولة النورية.

وأرسل الإمبراطور البيزنطى العديد من الهدايا إلى نور الدين محمود لقبوله بنود الصلح فيذكر ابن القلانسى: «قابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه... من الإتحاف بالأثواب الديباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، من جوهر نفيس وخيمة ديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية».

وبعد استكمال إجراءات الصلح وتبادل الإمبراطور مانويل الهديا مع نور الدين عاد الإمبراطور البيزنطى إلى عاصمته «مشكورا محمودا ولم يؤذ أحد من المسلمين» على حد تعبير ابن القلانسى وبذلك زال الخطر الصليبى البيزنطى عن الدولة النورية، وخابت آمال ملك بيت المقدس فى عقد تحالف مع الإمبراطور البيزنطى ضد نور الدين الذى عقد معه مانويل صلحا وهدنة، وبهذه الهدنة ساد نوع من الهدوء النسبى بين المسلمين والصليبيين.

وما لبث أن توفى بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس وخلفه عمورى الأول عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م، وبدأ الصراع بين الصليبيين ونور الدين يدور حول جبهة أخرى ألا وهى مصر، فقد أراد نور الدين أن يتم خطته ويستكمل توحيد الجبهة الإسلامية بضم مصر إلى الشام لتطويق الصليبيين ووضعهم بين شقى الرحى، وبذلك يسهل عليه القضاء عليهم وإخراجهم من بلاد الشام، وفى الوقت نفسه أدرك عمورى أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق وحمص وحماه أصبحت تشكل سدا منيعا يحول بين الصليبيين وبين التوسع فى شمال الشام، وأن الطريق الطبيعى للتوسع الصليبى هو مصر، هذا إلى جانب أن الصليبيين كانوا يدركون تماما أنه لا أمن ولا أمان ولا راحة لهم فى بلاد الشام طالما أن جبهتهم الجنوبية غير مؤمنة وطالما أن مصر ليست فى أيديهم، وبذلك غدت مصر موضع اهتمامهم باعتبارها الطريق الذى سيسهل لهم البقاء فى بيت المقدس.

وقد هيأت ظروف مصر فى ذلك الحين، وما كانت تعانيه الخلافة الفاطمية من فوضى واضطراب فى عصرها الثانى المعروف «بعصر ازدياد نفوذ الوزراء» وتطلع الكثيرين إلى منصب الوزارة واستعانتهم بالقوى الخارجية - هيأت الفرصة لتدخل كل من نور الدين وعمورى ملك بيت



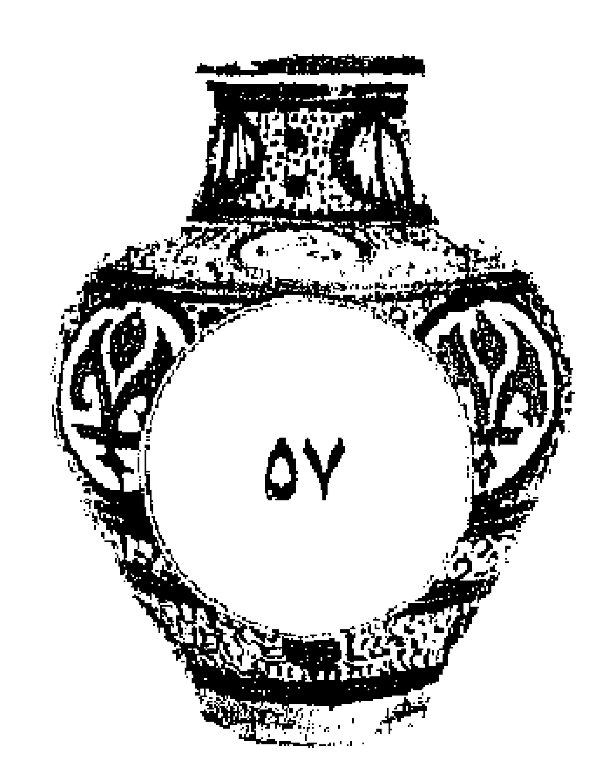
المقدس فى شئون مصر، وسيطرة نور الدين عليها فى النهاية، فقد حدث أن دار صراع حول منصب الوزارة فى عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) بين شاور والى الصعيد وضرغام قائد الجيش، ونجح الأخير فى انتزاع منصب الوزارة من شاور الذى فر إلى بلاد الشام، ولجأ إلى بلاط نور الدين فى دمشق، وطلب منه إمداده بجيش يستعين به فى استعادة منصبه المغتصب، وتعهد شاور لنور الدين مقابل ذلك : أن يدفع تكاليف الحملة كاملة، وأن يدفع لنور الدين ثلث دخل مصر كأتاوة سنوية، وأن يدين له بالولاء والطاعة، وأن يحكم مصر باسمه ونيابة عنه.

تردد نور الدين فى قبول عرض شاور فى بداية الأمر خشية أن تتعرض قواته لضغط الصليبيين فى مملكة بيت المقدس، إذ كانوا يسيطرون على الطرق المؤدية إلى مصر، وكان باستطاعتهم أن يقطعوا على نور الدين خطوط مواصلاته فى الذهاب والعودة، هذا فضلا عن شك نور الدين فى إخلاص شاور له. وقد عبرت المصادر عن تردد نور الدين بقولها: « فبقى نور الدين يقدم لهذا العرض رجلا، ويؤخر أخرى، فتارة يعزم على مساعدته عطفا عليه ورغبة فى التوسع، وأخرى يتخوف فى الإقدام من الإقدام، وتارة ثالثة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه».

أنفذ نور الدين - بعد تردد - حملة مع شاور بقيادة أسد الدين شيركوه القائد العام للقوات النورية وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين وعدد من قادة الجيش النورى، وما إن علم ضرغام بذلك حتى كاتب عمورى ملك بيت المقدس لعلمه بشدة تلهفه هو الآخر لفتح مصر، ووعده بأن يدفع له أتاوة سنوية، وبادر عمورى بدوره وأعد جيشا لمساعدة ضرغام، ولكن جاءت نجدته متأخرة، بعد أن تمكن جيش نور الدين من دخول مصر وهزيمة ضرغام وقتله وإعادة شاور إلى الوزارة ثانية.

وكما توقع نور الدين فقد تنكر شاور لوعده، وطلب من أسد الدين العودة إلى بلاد الشام بعد أن استعاد منصبه، فرفض أسد الدين العودة وأصر على تنفيذ ما تم الاتفاق عليه وأرسل فرقة من جيشه استولت على بلبيس (من أعمال محافظة الشرقية)، وأقام نفسه حاكما على الشرقية، وأدرك شاور عجزه عن مقاومة أسد الدين، فأرسل إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلب مساعدته، ويخوفه من امتلاك قوات نور الدين محمود مصر، فسارع عمورى إلى تلبية طلب شاور، وخرج على رأس جيش كثيف وانضم إليه فريق من الحجاج الأوربيين القادمين لزيارة بيت المقدس، واتجه نحو مصر (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م).

وصلت حملة عمورى إلى مصر، والتقت بشاور لتنسيق الخطط ضد شيركوه وتم الاتفاق على محاصرة أسد الدين فى بلبيس - التى تمركز فيها - ورغم قلة التحصينات وما كان عليه خصوم شيركوه من قوة وكثرة عددية، إلا أنه تمكن من مقاومة الحصار الذى استمر ثلاثة أشهر، دون أن ينالوا منه شيئا، ويئس عمورى خاصة بعد أن بلغه هجوم نور الدين محمود على عدد من



القلاع والمدن الصليبية فى بلاد الشام وأهمها حارم - بين حلب وإنطاكية - وهى إحدى المعاقل الصليبية الحصينة فى إمارة إنطاكية كما يذكر وليم الصورى. وتابع نور الدين نجاحه فى الاستيلاء على حارم بالتقدم نحو بانياس - على سفح جبل لبنان - وتسلم قلعتها.

ونتيجة لهذه الانتصارات التى حققها نور الدين على الصليبيين فى الشام اضطر عمورى وشاور إلى رفع الحصار عن أسد الدين شيركوه فى بلبيس، وراسلوه فى الصلح، وتسليم ما بيده لشاور، فوافق أسد الدين، وذلك لنقص المؤن والأقوات عنده نتيجة لطول الحصار (ذى الحجة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)، وعاد إلى الشام.

توالت حملات نور الدين على مصر، فأرسل حملته الثانية إليها فى ربيع الأول ٥٦٢هـ/ يناير ١١٦٧م بقيادة أسد الدين شيركوه ويصاحبه كوكبة من الأمراء النورية من بينهم ابن أخيه صلاح الدين. وقد دفعه لإرسال هذه الحملة إلى جانب رغبته فى السيطرة على مصر لتوحيد الجبهة الإسلامية، رغبته فى الانتقام من شاور الذى غدر بقائده أسد الدين، واستنجد عليه بالفرنج ولم يف بوعده له، هذا إلى جانب تلبية دعوة الخليفة الفاطمى العاضد الذى أرسل إليه يشكو استبداد شاور وظلمه ويستنجد به ؛ قائلا : « أن شارو استبد بالأمر وظلم وسفك الدم ».

وما أن علم شاور بخروج أسد الدين حتى كاتب عمورى طالبا النجدة، وعلى الفور أتاه الصليبيون وعمورى على الصعب والذلول، فتذكر المصادر «تارة يحثهم طمعهم فى ملك مصر على الجد والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النورى، فجدوا فى الإسراع فى المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ».

ووصل عمورى بحملته إلى مصر، وانضم إلى قوات شاور، وعسكروا على الشاطىء الأيمن للنيل قبالة شيركوه، ثم عبروا النيل للقائه، غير أن شيركوه اتجه نحو الصعيد، فتتبعه الصليبيون وشاور، حيث التقى الجمعان، ودار بينهما قتال عند قرية (البابين)- إحدى قرى الأشمونين على مقربة من المنيا - حققت فيه قوات أسد الدين انتصارا حاسما على الصليبيين، وحصل أسد الدين على غنائم كثيرة، وقتل وأسر أعدادا كبيرة من الصليبيين ونجا عمورى بأعجوبة (جمادى الآخرة ٥٦٢هـ/ مارس ١١٦٧م).

رجع عمورى ورجاله - على أثر هزيمتهم فى البابين - وعسكروا قرب الفسطاط، أما شيركوه فقد اتجه بكامل قواته إلى الإسكندرية، وذلك خوفا من أن تصل الصليبيين إمدادات عن طريق البحر، وقد تلقاه أهل الإسكندرية طائعين وفتحوا له أبواب مدينتهم بغير قتال وذلك لميلهم للمذهب السنى، وإحساسهم بخطر الصليبيين، فضلا عن استيائهم من تحالف شاور معهم، على



أن شيركوه ما لبث أن ترك ابن أخيه صلاح الدين نائبا فى الإسكندرية، واتجه على رأس الجزء الأكبر من قواته إلى الصعيد ليستولى عليه، وانتهزت القوات الصليبية الفاطمية هذه الفرصة وزحفت إلى الإسكندرية، وضربت عليها الحصار برا وبحرا، وعرض شاور على أهل الإسكندرية أن يسلموه صلاح الدين مقابل أن يرفع عنهم الضرائب والمكوس، ولكنهم رفضوا بشدة قائلين له: «معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج».

استمر حصار الصليبيين وشاور للإسكندرية ثلاثة أشهر، مما أجبر أسد الدين شيركوه على ترك الصعيد والاتجاه نحو الإسكندرية لنجدة ابن أخيه صلاح الدين، وقد دفع ذلك الصليبيين وعمورى إلى رفع الحصار عن الإسكندرية خاصة وقد وصلتهم أنباء من بلاد الشام تفيد بأن نور الدين هاجم العديد من القلاع والحصون الصليبية فى بلاد الشام وخاصة التابعة لإمارة طرابلس منتهزا فرصة غياب عمورى فى مصر. وانتهت حملة عمورى على مصر بتوقيع الصلح بينه وبين أسد الدين شيركوه مقابل إعطاء الأخير خمسين ألف دينار، وخروج الصليبيين وقوات نور الدين من مصر، واتفق الصليبيون مع شاور على أن يدفع لهم مبلغ مائة ألف دينار سنويا، وأن يتركوا جماعة من مشاهير فرسانهم وأعوانهم فى مصر لحمايتها من قوات نور الدين محمود، وحراسة أبواب القاهرة وأسوارها، وأن يبقى لهم بالقاهرة (شحنة) أى مندوب يمثل الملك الصليبى عمورى فى القاهرة، ويكون له رأى مسموع فى شئون الحكم.

وغادر أسد الدين شيركوه والقوات النورية مصر، كما غادرها الصليبيون وعمورى، ولم تفلح جولة نور الدين محمود الثانية فى ضم مصر إلى الشام.

رابعا : استعادة مصر وإسقاط الخلافة الفاطمية

أتيحت الفرصة للصليبيين الموجودين فى مصر - وفق الاتفاق السابق بين عمورى وشاور - أن يطلعوا على عورات البلاد وما وصلت إليه من ضعف واضطراب، مما جعلهم يتحكمون فيها تحكما كثيرا كما يذكر ابن الأثير. ونال المسلمون منهم أذى شديد، وجور عظيم، وقهر زائد، وطمعوا فيها وكاتبوا ملكهم عمورى، يستدعونه لدخولها، ويهونون عليه فتحها قائلين له : «إن مصر لا مانع لها ولا حافظ» كذلك كاتب عمورى بعض أعيان مصر الناقمين على شاور ومنهم ابن الخياط وابن قرجلة وابن النحاس وحببوا إليه القدوم إلى مصر وهونوا عليه فتحها، ووعدوه بالانضمام إلى جانبه إذا قدم بجيشه ورجاله إليها.

خرج عمورى على رأس حملة جديدة إلى مصر تحت ضغط وإلحاح من جانب الجالية الصليبية فى مصر من ناحية، وإلحاح جلبرت الإسيلى - مقدم الفرسان الاسبتارية - الذى دفعه



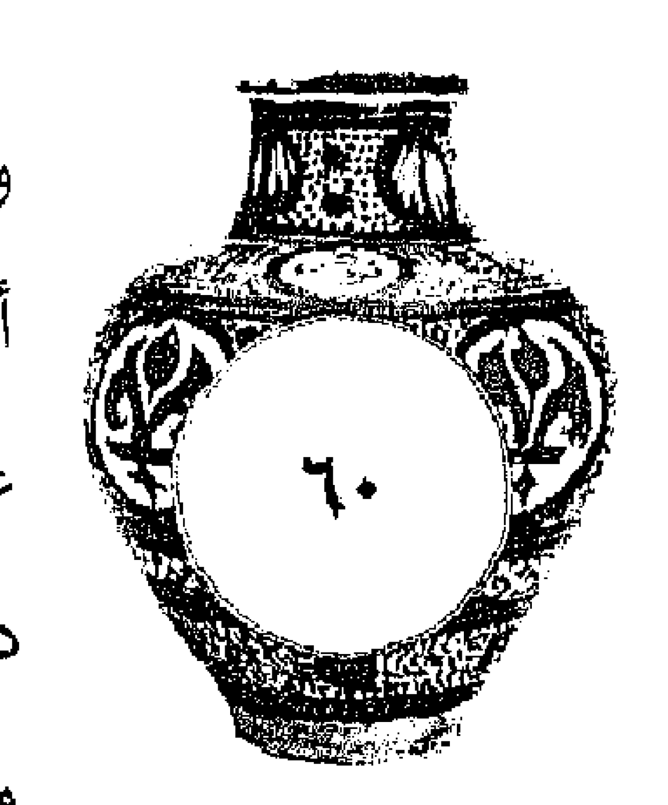
طمعه فى الحصول على إقطاع كبير فى بلد خصيب كمصر إلى إقناع عمورى بالإسراع لغزو مصر من ناحية أخرى، ومنتهزا فرصة انشغال نور الدين بالنزاع الذى نشب بينه وبين شهاب الدين مالك ابن على العقيلى صاحب قلعة جعبر من ناحية ثالثة. وأخيرا تغيرت سياسة شاور تجاه الصليبيين، وخاصة أن عمورى فرض نوعا من الوصاية على الدولة الفاطمية بتركه مندوبا عنه فى مصر هذا المندوب أصبح يزج أنفه فى كافة شئون الحكم مما ضايق شاور وأزعجه كما أن الأتاوة السنوية التى كانت تدفعها الدولة الفاطمية للصليبيين قد أثقلت ميزانيتها، كذلك اضطر شاور تحت ضغط الرأى العام الإسلامى إلى أن يقلب للصليبيين ظهر المجن، وسعى للاتصال بنور الدين محمود ووطد علاقته به عن طريق المصاهرة، ورضى أن يحمل إليه مالا كل سنة.

وصل عمورى بحملته إلى مصر ونزل بلبيس، فأغلقت المدينة أبوابها فى وجهه، ورفض حاكمها « طى بن شاور » السماح له ولجنوده بأن يعسكروا داخلها، لذلك استولى عليها عمورى بالقوة، وقتل كثيرا من أهلها (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) ثم سار منها نحو القاهرة، وما إن شعر شاور بحرج موقفه أمام الصليبيين حتى أمر بإشغال النيران فى الفسطاط بعد أن نقل أهلها إلى القاهرة.

أدرك الخليفة الفاطمى العاضد خطر الصليبيين على بلاده، وعجز شاور عن وقفهم لذلك أرسل إلى نور الدين محمود يستغيثه ويطلب منه النجدة، وأرسل العاضد فى الكتب شعور النساء إلى نور الدين محمود وقال له : « هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » ويذكر ابن أيبك أنه جاء فى كتاب العاضد إلى نور الدين قوله : « واغوثاه ! واغوثاه ! واغواثاه » الحق دين الإسلام، أدرك أمة محمد ﷺ ! يا نور الدين، يا نور الدين يا نور الدين» ويعقب ابن أيبك على ذلك بقوله « وهكذا : رأيت نسخة هذا الكتاب إلى نور الدين، ولم أزد فيه حرفا.

لم تكد رسالة الاستغاثة تصل إلى نور الدين حتى أسرع بإرسال حملته الثالثة إلى مصر وعلى رأسها قائده أسد الدين شيركوه بعد أن أمده بالرجال والأموال والثياب والدواب والأسلحة. واخترق أسد الدين الصحراء ووصل إلى القاهرة فى ٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ٨ يناير ١١٦٩م،

عُملة محمود بن زنكى - ضرب القاهرة سنة ٥٦٨هـ - ١١٧٢م



ورحب به أهلها والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين، وعندئذ أدرك عمورى أنه لا سبيل أمامه سوى الرحيل مخافة أن تهاجمه قوات نور الدين، وينقض عليه المصريون من الخلف، وعاد عمورى إلى الشام يجر أذيال الخيبة، وما أن دخل شيركوه القاهرة حتى استدعاه الخليفة العاضد، وخلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه «بالملك المنصور أمير الجيوش » وأصبح شيركوه بذلك صاحب السلطة الفعلية فى البلاد بعد أن تخلص من شاور.

هكذا أصبحت مصر جزءا من دولة نور الدين محمود، وتحقق ما كان يصبو إليه ألا وهو توحيد الجبهة الإسلامية بضم مصر إلى الشام، وبذلك اكتملت حلقة الحصار حول الصليبيين من الشمال ومن الجنوب ؛ لذلك لا عجب أن غمرت نور الدين فرحة كبيرة، وذهبت رسله بالبشائر إلى مختلف البلاد، وقصده الشعراء بالتهنئة وقد عبر وليم الصورى عن الكارثة التى ألمت بالصليبيين فى الشام على أثر نجاح قوات نور الدين فى دخول مصر بقوله: « لم يعد البحر كما كان من قبل معبرا آمنا، وأصبحت الأراضى التى حولنا تخضع للعدو، وشرعت الممالك المجاورة لنا تتأهب للقضاء علينا ومحونا من الوجود ».

وما لبث أسد الدين شيركوه أن توفى بعد شهرين وخمسة أيام من توليه وزارة العاضد وذلك فى (٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/ ٢٣ مارس ١١٦٩م)، ووقع اختيار الخليفة العاضد على ابن أخيه صلاح الدين ليكون وزيرا له. وأقام صلاح الدين فى مصر نائبا عن نور الدين محمود، وذكر اسمه فى الخطبة على منابر البلاد كلها بعد اسم الخليفة العاضد، وانتظمت العلاقة بين الرجلين (أى نور الدين محمود وصلاح الدين)، وأرسل نور الدين إليه أباه وأخوته ليساعدوه فى حكم البلاد نيابة عنه إذ قال لأخيه تورانشاه عندما أرسله إليه فى مصر : « إن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر،وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمنى، فسر إليه واشدد أزره، وساعده على ما هو بصدده » ومن ثم فقد ربطت الرجلين علاقة تقوم على الحب والاحترام،ومعرفة كل منهما لقدر صاحبه، وقد كان الرجلان على مستوى الأحداث.

أحست مملكة بيت المقدس وعلى رأسها عمورى بأن خطر نور الدين بدأ يشتد خاصة بعد ازدياد نفوذه فى مصر، وقد عبرت المصادر العربية عن ذلك الإحساس بقولها : « خافوا (أى الصليبيين) وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهم، يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين». كذلك سعى عمورى للاستنجاد بالغرب الأوربى لدفع خطر نور الدين ولكن دون جدوى، لذلك ولى وجهه شطر الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين الذى كان ينظر هو الآخر بعين الخوف إلى توسع نور



الدين محمود لذلك رحب مانويل بمساعدة عمورى فى حربة ضد نور الدين، وأرسل إليه أسطولا قويا بقيادة أندرونيق كونستيفانوس Andronic Consti-phanos (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)، كما أرسل مانويل قوة كبيرة من الفرسان والمشاة والميرة وآلات الحرب وعدد القتال مع أقوى الرجال، مما يكشف عن رغبته الحقيقية فى الاستيلاء على مصر.

ووصل الأسطول البيزنطى إلى عكا واتفق البيزنطيون وعمورى على مهاجمة مصر عن طريق دمياط « عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية»، وذلك لقربها من مراكز الصليبيين فى بلاد الشام، ولتمكن القاصد لها من البر والبحر على حد تعبير ابن شداد ووصل الصليبيون وبصحبتهم الأسطول البيزنطى إلى دمياط (ربيع الأول ٥٦٥هـ/ ديسمبر ١١٦٩م) وضربوا عليها الحصار برا وبحرا وضيقوا على أهلها، فما كان من صلاح الدين نائب نور الدين فى مصر، إلا أن أرسل العساكر فى النيل وعلى رأسهم ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمى إلى دمياط، وكاتب نور الدين فى ذات الوقت، ولم يتوان نور الدين عن إرسال الإمدادات اللازمة لنائبه صلاح الدين فى مصر، فكلما تجهزت طائفة من العسكر أرسلها إلى صلاح الدين «فسارت إليه يتلو بعضها بعضا» كما يذكر ابن واصل. ولم يكتف نور الدين بذلك بل انتهز فرصة غياب عمورى فى مصر وشرع فى تهديد ممتلكاته بالشام ليجبره على العودة للدفاع عنها، ولفصم عرى التحالف الصليبى البيزنطى وقد نجح نور الدين فى ذلك وفشلت الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط.

ترتب على فشل الحملة الصليبية البيزنطية تمكن صلاح الدين وسيده نور الدين محمود فى مصر وهو ما كان يخشاه كل من الصليبيين والبيزنطيين، وأصبح الخليفة الفاطمى فى مصر تابعا لنور الدين محمود سلطان دمشق ولا عاضد له وأخذت سلطته فى الضعف والانهيار، كما أصبحت القوى الصليبية فى بلاد الشام بين شقى الرحى وهو ما أراده نور الدين.

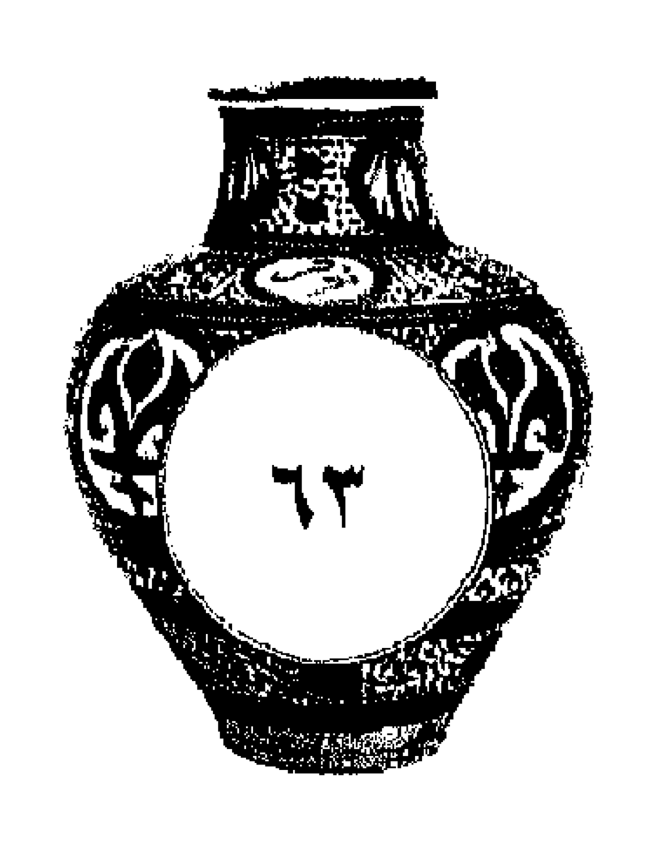
لم يبق أمام نور الدين إلا أن يسقط الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر ويعيدها إلى حظيرة الخلافة العباسية السنية ومن أجل هذا أرسل نور الدين إلى صلاح الدين نائبه فى مصر يطلب منه قطع الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد وإقامتها لبنى العباس خلفاء بغداد، فأجاب صلاح الدين طلب نور الدين بعد تردد، وتم حذف اسم العاضد من الخطبة فى الجمعة الأولى من المحرم من عام ٥٦٧هـ/ سبتمبر ١١٧١م وخطب للخليفة العباسى المستضىء بأمر الله على منابر مساجد مصر ومن بعده لنور الدين محمود، ومات العاضد على أثر ذلك وسقطت الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر بعد حكم دام قرنين أو يزيد من الزمان.



ولما تمت الخطبة للخليفة العباسى المستضىء بمصر، أرسل إليه نور الدين محمود أبا المعالى المطهر بن عصرون رسولا بكتاب تهنئة خاص كما أرسل معه منشور إلغاء الخطبة للفاطميين، وسار ابن أبى عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينة إلا ودخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها المنشور العظيم الذكر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج أهل بغداد للقائه ونثرت عليه دنانير الأنعام وحبى بكل إحسان وإكرام كما يروى أبو شامة.

وأسرع الخليفة العباسى المستضىء بإرسال الخلع الكاملة مع رجل عظيم المنزلة فى الدولة العباسية وهو عماد الدين صندل - إلى كل من نور الدين وصلاح الدين، كما أرسل الأعلام السود شعار بنى العباس لتنصب على المنابر، وكانت خلعة نور الدين عبارة عن جبة سوداء وطوق ذهب، فلبسها نور الدين بدمشق إظهارا لشعارها. ويذكر أبو شامة أن نور الدين لبس الفرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقها، وخرج وركب من داخل القلعة، ومضى تقليد السيفين أى أن له الشام ومصر وقد جمع بينهما، وهكذا أصبحت مصر تابعة لنور الدين وحقق هدفه فى ضمها إلى الشام وتطويق الكيانات الصليبية فى بلاد الشام ولم يبق سوى القضاء على الصليبيين وإخراجهم منها.

الحملة الصليبية على عكا





رغم نضوج الثمـرة إلا أن القدر لم يمهل نور الدين محمود ليقطفـها إذا لم يقدر له أن يرى حلمه وقد تحقق، فقد مـات فى يوم الأربعاء الموافق ١١ شوال من عام ٥٦٩هـ/ ١٥ مايو ١١٧٤م بدمشق، بسبب علة الخـوانق (الذبحة الصدرية) عن عمر يناهـز الثمانية والخمسين بعـد أن عجز الأطباء عن علاجه، وتمت الصلاة عليه بجامع القلعـة بدمشق، ودفن بالمدرسة التى أنشأها للحنفية بدمشق عند باب الخواصين وباب الخيميين على الدرب.

مـات نور الدين فى أوج عظمتـه، فـقد اتسع ملكه، وخطب لـه بالحرمين الشـريفين مكة والمدينة، وبمصر والـشام، وأطاعه أصـحاب ديار بكر وملك الموصل والجـزيرة وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله. وقد رثاه العماد الأصفهانى بقصيدة جاء فيها:

يا ملكـا أيامـه لم تـزل

لفضـله فاضلة فاخـرة

ملكـت دنيـاك وخلفـتها

وسرت حتى تملك الآخرة

ومن أشعار العماد أيضا فى رثاء نورالدين :

لفقـد المـلك العـادل

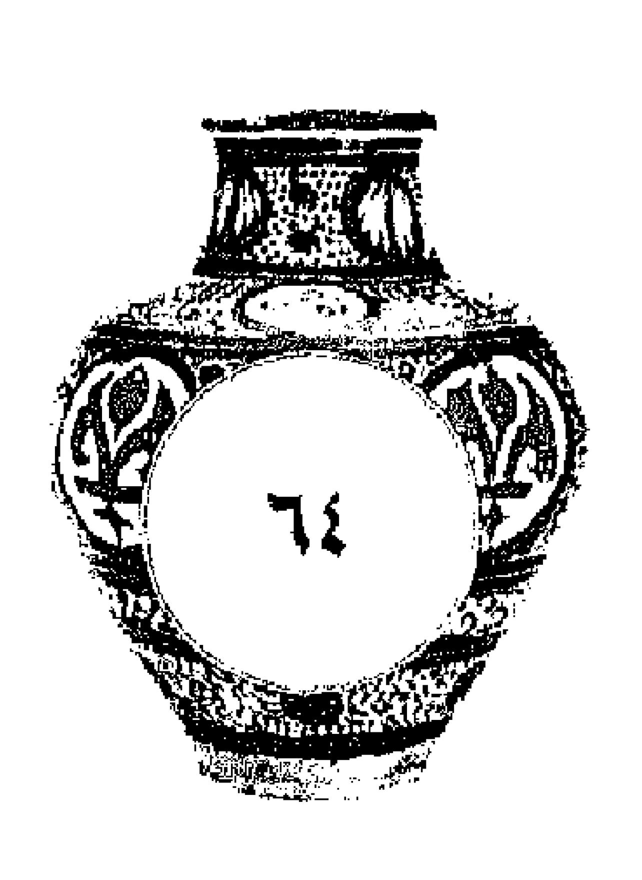
يبـكى المـلك والعـدل

وقـد أظلـمت الآفـاق

لا شمـس ولا ظـل

فأيـن الكـرم والعـدل

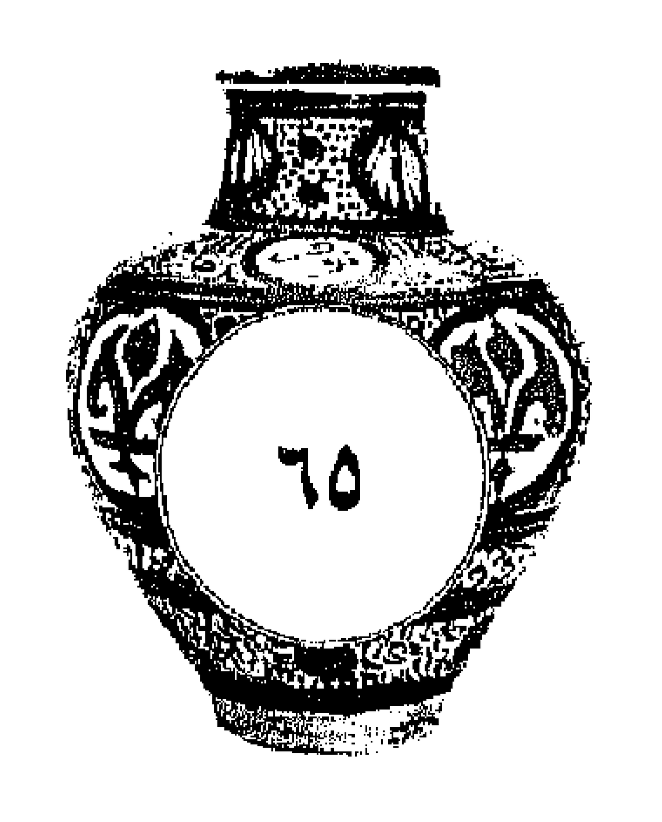
وأيـن الفاضـل الجـزل



وهكذا سطر التاريخ بمداد من نـور، صفحة ناصـعة البياض، فى حـياة الملك العادل نور الدين محمـود، ذلك الرجل التقى الورع، الكريم، المجاهد، الذى وضع اللبنات الأولى فـى الأساس الذى أقـامه مـن بعده صـلاح الدين، وحقق بفضله انتصاراته ذائعة الصيت على الصليبيين، والتى لا تزال تخلد اسمه حتى يومنا هذا.

فتحـية لهذا الرجل الذى تساوت فيـه نواحى الإبداع والعظمة، روحيا وسيـاسيا، فلم ينس أمور دينه ولا أمـور دنياه، وأعطى لكل حقهـا، فكان التقى الورع الزاهد فى دنياه، وكـان الحاكم السـياسى العـادل، والداهية العـسكرى الناجح، والمجاهد الذى نذر حـياته للـجهاد الدائـم ضد الصليبيين حتى لقب «بالشهيد» لطلبه الشهادة فى قتالهم.

فنعم الملك العادل نور الدين محمود، ونعم سيرته الحافلة بالأمجاد وجلائل الأعمال.





- ابن أبى أصيبعة : « موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م

  - عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن الأثير « على بن أبى الكرم محمد عبد الكريم ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م»

  - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.

- ابن تغرى بردى « جمال الدين أبو المحاسن ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م»

  - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٦ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون تاريخ.

- ابن خلكان : « أبو العباس شمس الدين بن محمد بن أبى بكر ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م

  - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، م٥ تحقيق إحسان عباس، بيروت بدون تاريخ.

- ابن جبير « أبو الحسين محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م. رحلته - بيروت ١٩٨٠م.

- ابن الشحنة :« أبو الفضل محمد بن الشحنة ت ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م»

  - الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب. تقديم عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٩٨٤م.

- ابن العديم : «كمال الدين أبى القاسم عمر ٥٨٨- ٦٦٠هـ»،

  - زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ج٢، نشر وتحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥٤م.

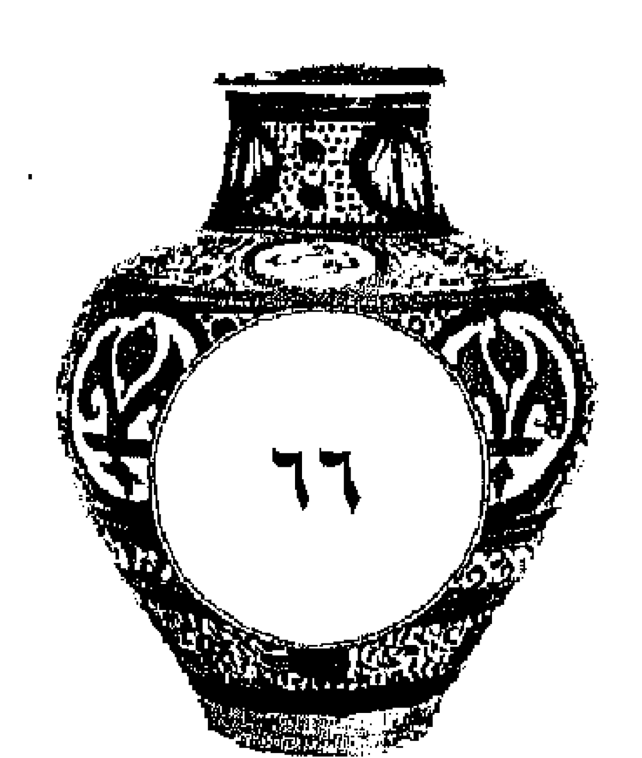
- ابن القلانسى «أبو يعلى حمزة بن أسد بن على ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م»

  - تاريخ دمشق،تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣م.

- ابن كثير: « عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م».

- البداية والنهاية، م٦، تحقيق محمد عبد العزيز النجار - القاهرة ١٩٩٢م.

- ابن واصل « جمال الدين محمد بن بكر سالم ت ٦٩٧هـ/ ١٢٠٠م ».



- مفـرج الكروب فى أخبـار بنى أيوب ج١ تحـقيق جمـال الدين بن الشـيال، القاهرة ١٩٥٧م.

- أبو شـامـة « شهـاب الدين أبو مـحـمد بـن عبـد الرحـمن ت ٦٦٥هـ / ١٦٢٧م».

- الروضتين فى أخـبار الدولتين (النورية - والصلاحيـة) الجزء الأول، بيروت بدون تاريخ.

أسامة بن منقذ « مؤيد الدولة أبو مظفر الشيزرى ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م ».

- كتاب الاعتبار. حرره فيليب حتى، برنستون الولايات المتحدة، ١٩٣٠م.

- البندارى « الفتح بن على البندارى ت خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى).

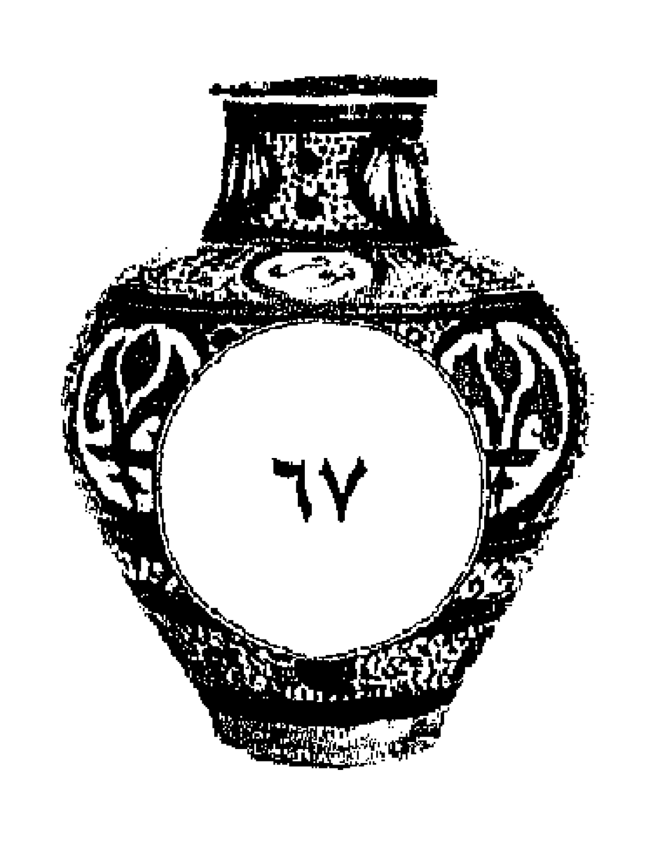
- سنا البرق الشامى (٥٦٢هـ- ٥٨٣هـ/ ١١٦٦- ١١٨٧م).

اختصار من كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى.

النعيمى « عبد القادر محمد النعيمى الدمشقى (٨٤٥-٩٢٧هـ).

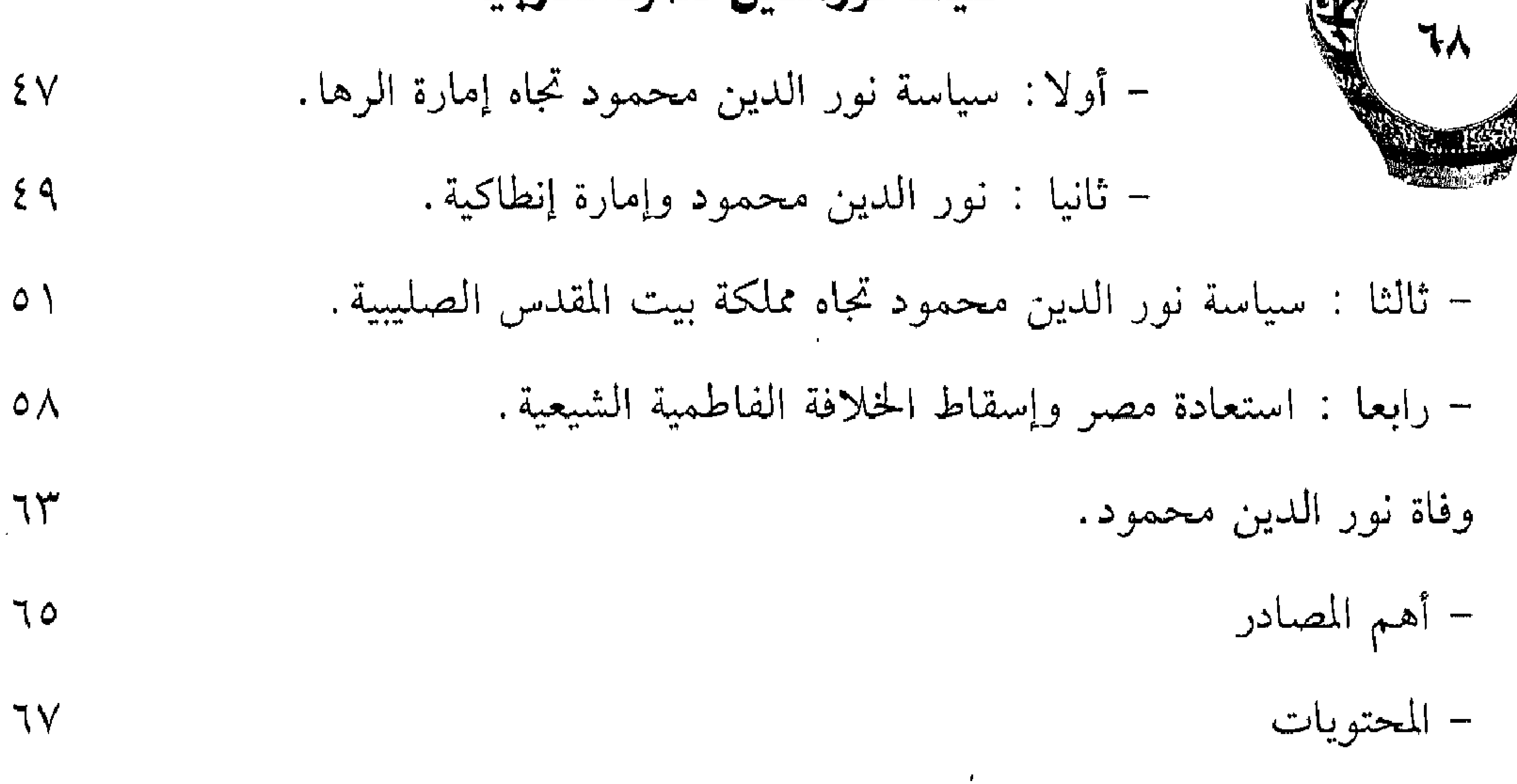
- الدارس فى تاريخ المدارس، جزءان، تحقيق جعفر الجنى، القاهرة ١٩٨٨م.

- وليم الصورى، الحـروب الصليبـية، ترجمـة حسن حبـشى، الجزءان الثالـث والرابع، القاهرة ١٩٩٤، ١٩٩٥م.





المحتويات



الفصل الرابع

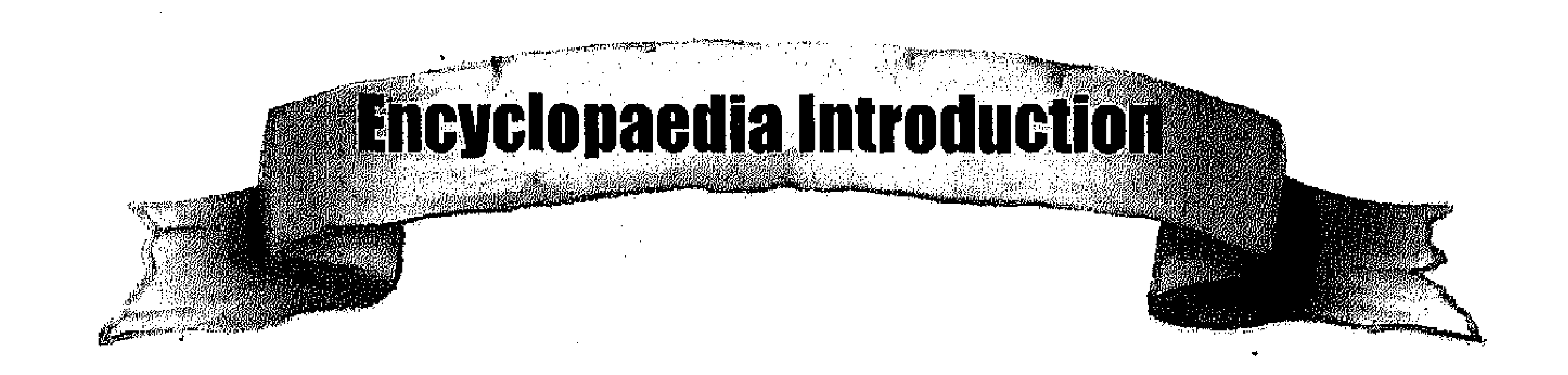
سياسة نور الدين محمود الخارجية



This work investigates the life-story of Nur Ed-Din Mahmoud, the son of Emad Ed-Din Zanki, who pursued his father's Jihad against the Crusaders in the Holy Land. Nur Ed-Din's role in establishing the " Nuria State"in Aleppo and Damascus, together with his accomplishments in the fields of administration, finance, commerce, learning, and religion are also investigated. Nur Ed-Din is reported to have employed homer - pigetson as a means of communication and access to information.

The work culminates with Nur Ed- Din's efforts to establish a unified front capable of challenging the Crusaders in Syria and Palestine. He put an end to the weak Fatimid Caliphate in Cairo, then paved the way for Salah Ed-Din the Ayyubid to challenge the Crusaders and to restore the Holy City of Jerusalem.

Dr. Laila Abdel Gwaad



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

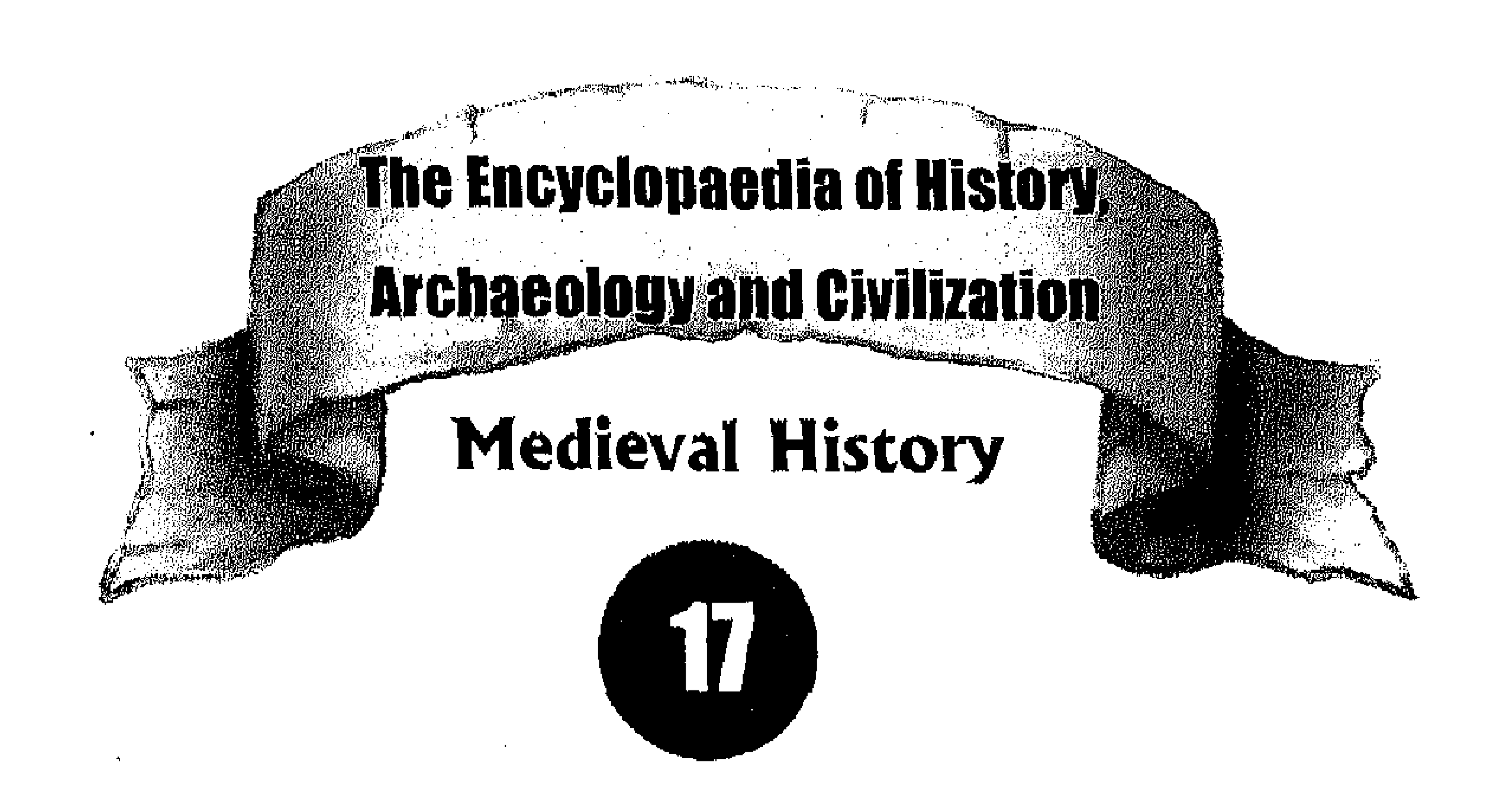
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

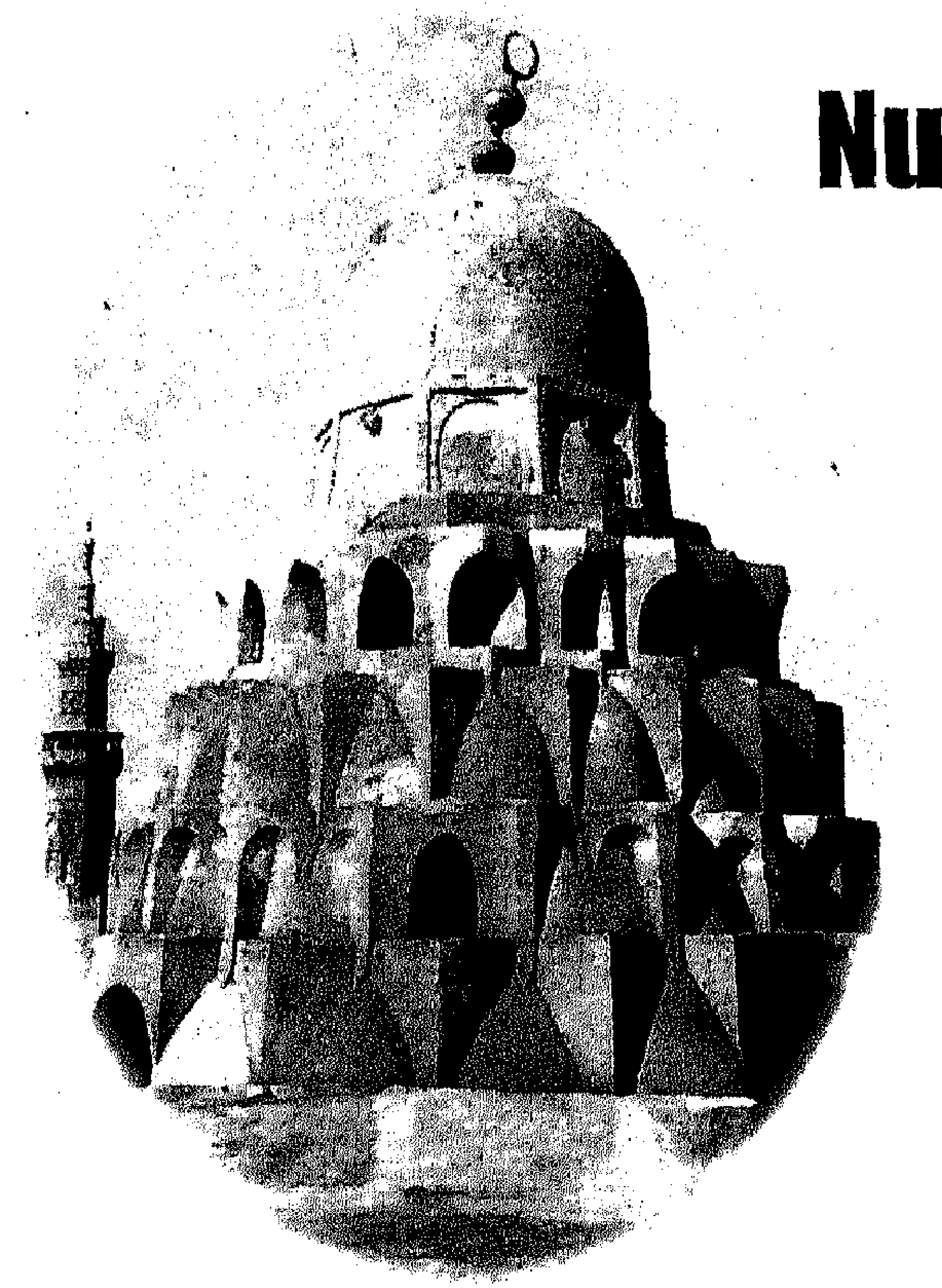
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



Sultan Al Adel Nur Ed- Din Mahmoud



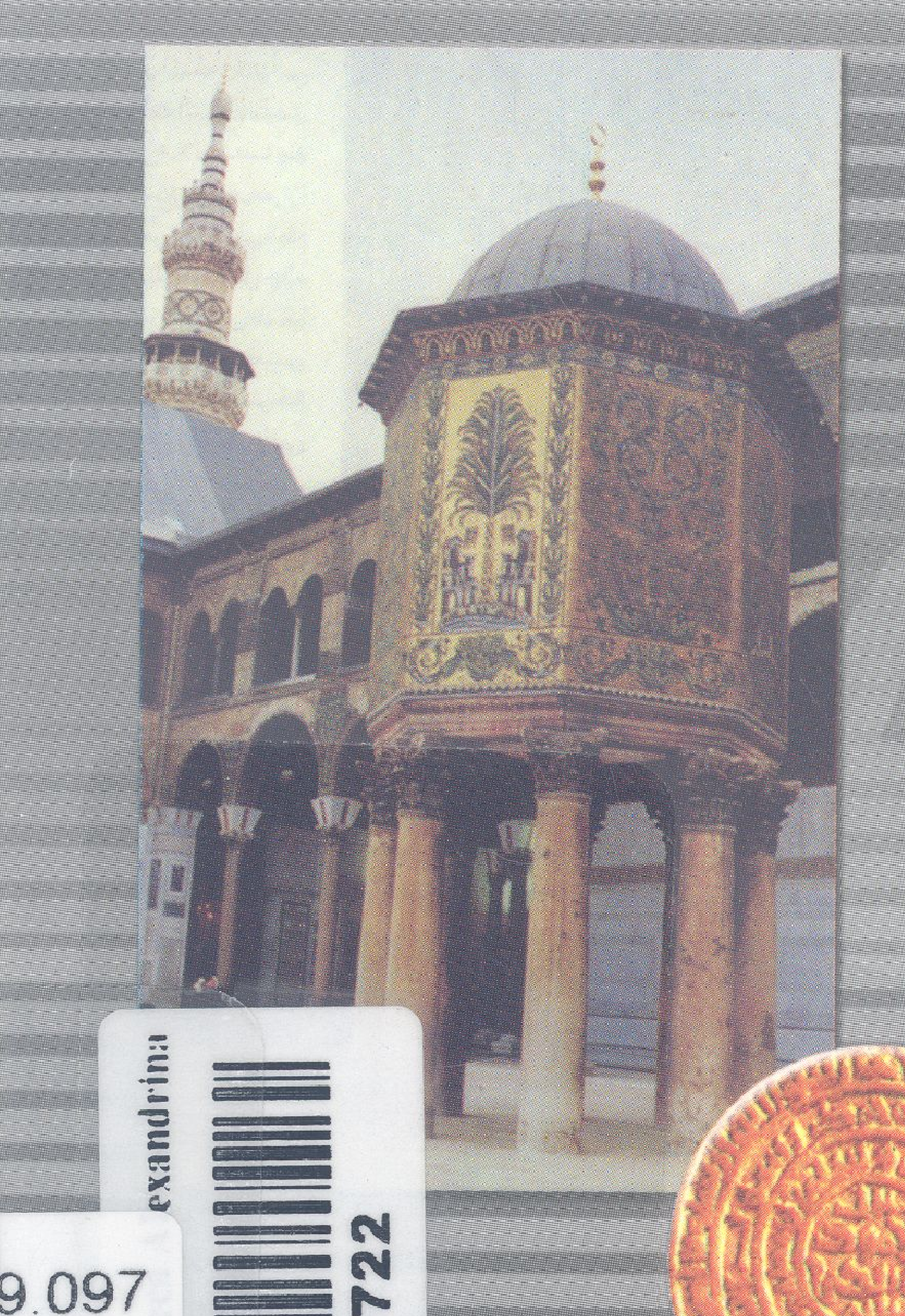
Dr. Laila Abdel Gwaad

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Sultan Al Adel Nur El- Din Mahmoud



Dr. Laila Abdel Gwaad

